دراسات
في علم البديع

دكتور
مصطفى السيد جبر
الأستاذ بجامعة الأزهر

الطبعة الرابعة
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م
دريم للطباعة ٠١٠٦١٣١٦٣٨

مقدمة

الحمدُ لِلِه ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ؛ سيدنا محمد ، النبى الأمى المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين.
وبعـــد ...

فإن المتأخرين من علماء البلاغة ـ قسموها إلى ثلاثة علوم: المعانى ، والبيان ، والبديع. وخصوا علم البديع بـ "تحسين الكلام وتزيينه" وذلك بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال ، ووضوح الدلالة على معناه. وهم بذلك أرادوا لهذا العلم أن يكون تابعاً ومكملاً لعلمى: المعانى والبيان ، وأن تكون مباحثه مجرد محسنات عرضية ، لا ترقى إلى الذاتية كغيرها من مباحث البيان العربى.

"وقد كان للإمام عبد القاهر النظرة المثلى فى أبواب البلاغة وقضاياها ؛ ومن ذلك أنه أشار إلى مزية النظم ، ودقة مسلكه فى مسائل من البيان العربى ، فقد قرن بينها ودرسها تحت عنوان "فصل فى النظم ، يتحد فى الوضع ، ويدق فيه الصنع". وهذه المسائل هى: المزاوجة ، والتقسيم ، والجمع ، والسجع ، والتشبيه ، والاستعارة . وجعل هذه المسائل نماذج يقاس عليها ؛ ولذا صدرها بقوله: "وليس لما شأنه أن يجئ على هذا الوصف حد يحصره ، وقانون يحيط به ؛ فإنه يجئ على وجوه شتى وأنحاء مختلفة"([1]).

---

[1] – دلائل الإعجاز ٩٣، قراءة وتعليق : محمود شاكر.

فالإمام عبد القاهر لم يصنف البلاغة إلى: معانى ، وبيان ، وبديع ، ويجعل البديع تابعا وحلية وعرضا كما فعل من بعده من العلماء.

والواقع أن لعلم البديع دوره فى البلاغة ، فإن صوره يتداخل الكثير منها مع مباحث العلمين السابقين ، ولهذا العلم أهميته فى الإفصاح عن دقيق المعانى ، والردّ على المشككين ([1]) ، وتفنيد دعاوى المغرضين تجاه معانى بعض النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية.

وهذا الكتاب دراسة لعدد وافر من المحسنات البديعية ، وهى دراسة منهجية تعتمد على الإكثار من الأمثلة والشواهد ، وتحليلها تحليلاً بلاغيًا موافقًا للمنهج السوى والأمثل ولا سيما عند الاستشهاد من القرآن الكريم ، والحديث الشريف.

ومن المُسلَّم به أن دراسة الكثير من النصوص على ضوء القواعد فيه إرهاف للحسِّ ، وتنمية للذوق ، وتمكين لمعالم يبدو ذلك فى بعض أمثلة المشاكلة والتورية والتجريد. البيان ؛ فتراث الأمة هو حياتها ، وسر نهضتها ، وعنوان تقدمها.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم إنه أكرم مسئول.

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير)

المؤلف

---

[1] ـــ يبدو ذلك فى بعض أمثلة المشاكلة والتورية والتجريد.

علم البديع

- ١-

علم البديع : هو أحد علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

قال الرازى: ابدعَ الشئُ : اخترعه لا على مثال. والله بديعُ السمواتِ والأرضِ . أى مُبدِعُهما . والبديع: المبتدِع ، والمُبتدَعُ .. وأبدعَ الشاعرُ : جاء بالبديع ، وشئ بِدْعٌ بالكسر. أى مُبتدَع ... والبِدْعَة: الحَدَثْ فى الدين ([1])

وقال الفيروزابادى : " بَدَعَ الشئَ يَبْدعُهُ بَدْعًا وابتدَعهُ: أنشأهُ وبدأه. والبدِيعُ والبِدْعُ : الشئُ الذى يكون أولاً. وفى التنزيل:" قل ما كنتُ بدعًا من الرسل" ([2]).

أى ما كنت أول من أُرسِل . قد أُرسل قبلى رُسلٌ كثير .. والبدعة: الحَدَثْ وما ابتُدع من الدين بعد الإكمال .. والبديعُ: المُحدَثُ العجيب . والبديع : المُبدِع ...... والبديع من أسماء الله - تعالى - ، لإبداعه الأشياء ، وإحداثه إياها ، ويجوز أن يكون بمعنى : مُبدِعُ " ([3])

والبديع عند علماء البلاغة :

هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال ، ووضوح دلالة على المعنى المراد. فتحسين الكلام بلون أو أكثر من ألوان البديع يكون بعد رعاية مباحث علمى المعانى والبيان.

والمحسنات قسمان : معنوية ، ولفظية.

---

[1] - مختار الصحاح : (بدع)

[2] - سورة الأحقاف : ٩

[3] - لسان العرب : (بدع)

فالمحسنات المعنوية : ما كان التحسين بها راجعا أولا إلى تحسين المعنى ، وإن تبعه تحسين اللفظ .

والمحسنات اللفظية : ما كان التحسين بها راجعًا أولا الى تحسين اللفظ ، ومع هذا فإنه يتبعه تحسين المعنى .

- ٢ -

لمحة عن نشأة البديع :

وردت كلمة بديع .. فى شعر الجاهليين والإسلاميين والأمويين . فقد وردت أمثلة لألوان البديع فى الشعرالجاهلى.

فمن ذلك :

الطباق فى قول امرئ القيس :

مِكَــــرٍّ مِفَرٍّ مُقْــــبلٍ مُدْبــرٍ مــــعًا
كجُلْمودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ

وتأكيد المدح بما يشبه الذم فى قول النابغة :

ولا عيب فيهم غيــرَ أن سيــــوفهم
بهــنَّ فلـــولٌ مـــن قـــراع الكـــتائب

كما ورد التقسيم فى قول زهير بن أبى سلمى :

فـــإن الحـــــق مقطعـةُ ثـلاثٌ
يمــــــينٌ أو نفـــارٌ أو جِــلاءُ

ويقول عدى بن زيد يقول :

فـلا أنـا بِـدعٌ مـن حـوادثَ تعتـرى
رجالاتٍ غدتْ من بعد بؤسى بأسعد

ووردت أمثلة لألوان البديع فى الشعر الإسلامى والأموى ، يقول حسان بن ثابت :

قـومٌ إذا حاربـوا ضرُّوا عـدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعُوا

سجيــةٌ تـلك فيهــم غيــرُ مُحــدثةٍ
إن الخلائــق فاعلم شرّها البــدعُ

ويقول الفرزدق :

أبـت نــاقتـى إلا زيــادًا ورغبتــى
وما الجـود من أخلاقــهِ ببد يــع

ووردت أمثلـة كثيـرة للبـديع فـى القـرآن الكـريم ، والحـديث الشريف فمن مراعاة النظير قوله تعالى : " الشمس والقمر بحسبان " ([1])

ومن التورية قولـه تعالى :" والسماء بنيناها بأييد" ([2]) ومن العكس والتبـديل قول الرسـول - ﷺ - : " جـار الدَّارِ أحـق بدار الجارِ " ..الخ

ولما جاء ت الدولة العباسية وفتن الأدباء بالحضـارة الماديــة والعقليــة ، وعايشــوا حيــاة التـرف والقصــور ، واطلعـوا علــى الكتـب المترجمـة ومـا تقتضـيه مـن حكمـة وخيـال دفعهم ذلـك إلـى محاكاتهـا فـأغرموا بفنـون البـديع ولكنهم كانوا فيه بين مقتصد كالبحترى وابن المعتز ومفرط كأبى تمام .

ومع بداية التدوين وجدنا الجـاحظ (٢٥٥هـ) يورد فى كتابه : " البيان والتبيين " ألوانـا مـن البـديع ، ويضـرب لهـا الأمثلة الكثيرة ومنها : التقسيم ، والهزل الذى يـراد بـه الجد ، والسجع ، والازدواج .

وينتصـر الجـاحظ للعـرب فيقـول : " والبـديع مقصـور علي العرب ومن أجلـه فاقت لُغتهم كل لغـة ، وأربـتْ علـى كل لسان . والرّاعى كثير البديع فـى شعره ، وبشـار حسـن

---

[1] – سورة الرحمن : ٥

[2] – سورة الذاريات : ٤٧

البديع ، والعتّابى يذهب شعره فى البديع " فقد تكرر ذكر " البديع " ومن عرفوا به فى "البيان والتبيين " .

وجاء الخليفة العباسى عبدالله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ) فألف " كتاب البديع " وهو يعد أول كتاب ألف خالصا للبلاغة العربية وقد ذكر فيه ثمانية عشر نوعا وجعلها قسمين:

الأول: فنون البديع وهى: الاستعارة والتجنيس ، والمطابقة ، ورد إعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى.

والثانى: محاسن الكلام والشعر: وهى: الالتفات ، والاعتراض والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدوح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل الذى يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط فى الصفة ، وحسن التشبيه ، ولزوم ما لا يلزم ، وحسن الابتداء .

فالبديع عند ابن المعتز يعنى : البلاغة بعامة ، ولذا وجدنا من فنون البديع عنده "الاستعارة" وهى من " علم البيان " بجوار " التجنيس " وهو من " علم البديع " ... إلخ .

وأقول : إن محاسن الكلام هى من فنون البديع ، وإن اختلاف التسميات لا يعنى اختلاف المسميات .

وأما الفصل بينهما فى التسمية فإن الباحث فى " كتاب البديع " يرى أن ابن المعتز ألف كتابه على مرحلتين . وقد أحصى فى المرة الأولى الفنون الخمسة ثم وقف عندها وكتب خاتمته بقوله :

وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين . وأول من نسخه منّى "علىّ ابن هارون بن يحيى بن أبى المنصور المنجم" فلم تجر عادة أى مؤلف أن يقحم مثل هذا فى وسط مؤلفه وإنما موضعه - كما جرت العادة هو آخر الكتاب وخاتمته .

ثم وصل ابن المعتز ما سبق بقوله : " ونحن الآن نذكر محاسن الكلام والشعر ، ومحاسنها كثيرة لا ينبغى للعالم أن يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه ... فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ، ولم يأت غير رأينا فله اختياره ([1])

وكان فضل ابن المعتز فى هذا الكتاب هو جمع تلك الأنواع فى كتاب مستقل قائم على الاستشهاد من القرآن الكريم والحديث الشريف ثم من كلام العرب ؛ ولذا نراه يقول :

"وما جمع قبلى فنون البديع ولا سبقنى إليه أحد" ، وبيَّن ابن المعتز الغرض من تأليف هذا الكتاب بقوله : "وإنما غرضنا .. تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شئ من أبواب البديع .." .

وجاء قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) فجمع فى كتابه " نقد الشعر " عشرين لونًا ولكنه توارد مع ابن المعتز فى ثمانية منها ، وسلم له بذلك اثنا عشر نوعًا .

وأما أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ) فإنه خص " الباب التاسع " من " كتاب الصناعتين " بدراسة فنون البديع ، وهى عنده خمسة وثلاثون وقد أكثر من إيراد الأمثلة من القرآن الكريم والحديث الشريف ، والشعر

---

[1] - دراسات فى نقد الأدب العربى ٢٥٨ ــ ٢٦٠ باختصار وتصرف

والنثر وكان طويل النفس ، عذب البيان . وفى كتابه يتجلى " المنهج الأدبى " فى دراسة البيان العربى .

وألف ابن رشيق القيروانى (ت ٤٦٣هـ) كتاب : " العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده " والكتاب سجل حافل بآراء العلماء فى النقد والبلاغة وقد درس فيه ابن رشيق أبوابًا كثيرة من البديع ومنها : التجنيس ، والترديد ، والتصدير ، والمبالغة .. إلخ .

وأورد معاصره ابن سنان الخفاجى فى كتابه : "سر الفصاحة" كثيرا من ألوان البديع ومنها : الترصيع ، والجناس ، والتوشيح . وقد كتبه بأسلوب علمى ممتاز ، ونرى فى مباحثه اقتران مسائل النقد بالبلاغة . فهما يسيران فى الكتاب سيرا مزدوجا ، وللكتاب أهميته فى البلاغة والنقد .

وكتب عبدالقاهر الجرجانى (ت٤٧١هـ) فى مقدمة "أسرار البلاغة" كلاما بالغ الأهمية فى البديع عند التجنيس ، والسجع ، والتطبيق . وبين أن جانب المعنى يجب أن يراعى أولاً قبل تحسين اللفظ .

وألف معاصره " أسامة بن منقذ " كتابه : "البديع فى نقد الشعر" وجمع فيه "ما تفرق فى كتب العلماء المتقدمين المصنفة فى نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه" ولكنه سار على نهج من قبله ، فلم يجعل كتابه خاصا بمباحث البديع .

ولذا ألفينا من أبواب الكتاب : التطبيق ، والعكس ، والتوشيح ، والمبالغة ، والتجنيس المماثل وهى من صور البديع ، كما وجدنا من أبوابه : " القلب ، والإسهاب ، والإطناب ، والاحتراس " وهذه الأبواب من مباحث

"علم المعانى" وفيه كذلك الاستعارة ، والكناية ، والإشارة وهما من أبواب " علم البيان " .

إلى هنا ألفينا صورا من البديع تختلط بمباحث المعانى والبيان ، بل إن الكثير من العلماء أطلقوا على مسائل البلاغة بعامة : " البديع " كما رأينا عند ابن المعتز .

* * *

ويجئ أبو يعقوب يوسف السكاكى(ت٦٢٦هـ) فيؤلف " مفتاح العلوم " ويجعل القسم الثالث منه خاصا بالبلاغة . و يطلق " علم المعانى " على المباحث التى تدرس فيه حاليًا وهى : أحوال الإسناد الخبرى ، والقصر ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب والمساواة ...

ويطلق " علم البيان " على مباحث " التشبيه ، والمجاز ، والكناية " ثم يعرض لبعض ألوان البديع ويصفها بأنها تشارك مسائل هذين العلمين فى تزيين الكلام وتحسينه ويقلل من أهميتها بقوله :

" فههنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام ؛ فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها وهى قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ ([1])

وأبو يعقوب بذلك فتح الباب لمن جعل البديع حلية وعرضا فلا يرقى إلى الذاتية كما سنرى عند الخطيب ومن بعده من علماء البلاغة .

وألف بدرالدين بن مالك (ت٦٨٦هـ) كتابه : "المصباح فى المعانى والبيان والبديع " وأطلق على ألوان البديع اسم : "علم البديع" وبذلك صار " البديع " على يدى "السكاكى" و"بدرالدين بن مالك" عِلماً مستقلا .

---

[1]- مفتاح العلوم ٤٢٣

وفى القرن الثامن الهجرى يؤلف الخطيب القزوينى (ت٧٨٠هـ) كتابه "الإيضاح" ويقسم البلاغة إلى ثلاثة علوم: المعانى ، والبيان ، والبديع. ويُعرِّف علم البديع بأنه " علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة" . وقول الخطيب : "بعد رعاية تطبيقه " الخ يفيد بأن مباحث البديع صارت على يديه تابعة لعلمى : المعانى ، والبيان . وكأنها ليست من البلاغة ، ولذا يقول الخطيب فى " التلخيص : " وتتبعها وجوه أخرى تورث الكلام حسنا " .

- ٣ -

والحق أن ألوان البديع من البلاغة فى الصميم ، ولذا فإن بعض صوره كالتورية تتلاقى مع الطباق والمجاز وغيرهما من ألوان البيان ، كما تلتقى بعض أمثلة التجريد بالتشبيه والكناية .

وإن من الكلام ما لا يتأتى إلا بالطباق أو بمراعاة النظير ...الخ كما فى قوله تعالى : " الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا " [١]

وكما فى قوله تعالى " الشمس والقمر بحسبان " [٢] فقد اقتضى المقام فى الآية الأولى الحديث عن الحكمة فى خلق الموت والحياة ، وفى الآية الثانية بيان أن الشمس والقمر يتحركان بحسبان معلوم ، وذلك لا يتأتى إلا بذكر الأمرين فى كلتا الآيتين الكريمتين .

هذا هو الشأن فى ألوان البديع ، والذى يجب مراعاته فى هذا المقام.

---

[١] – سورة الملك : ٢

[٢] – سورة الرحمن : ٥

البديعيات :

هى القصائد التى اشتمل كل بيت منها على لون أو أكثر من ألوان البديع تمثيلا فقط ، أو مضمومًا إليه التزام التورية باسمه .

وقد استحوذت هذه البديعيات على الأدب والفن عدة قرون ([1]) وكان معظمها يهتم بالصنعة ، والزخرف ولو على حساب المعنى .

وأغلب هذه القصائد فى مدح الرسول - ﷺ - وذلك تأسيا بالإمام البوصيرى (ت٦٩٥ - ٦٩٧هـ) فى قصيدته المباركة " البردة" ([2])

والبوصيرى يدعو فيها إلى الزهد ويحذر من هوى النفس ، وفيها حديث طيب عن المولد النبوى الشريف ، وعن أخلاقه - ﷺ - وبيان بعض معجزاته ، وإسرائه ومعراجه وجهاده فى الدعوة ، كما عطرت " البردة " بالحديث عن عظمة القرآن وشرفه وبلاعته وهدايته وشفاعته ...

---

[1] – الصبغ البديعى فى اللغة العربية : ٣٧٢

[2] – وهى بديوانه :١٦٥. كما طبعت مستقلة بمكتبة القاهرة . وسبب تأليفها أن البوصيرى مرض بالفالج الذى أقعد نصفه ، فلم يبق له أمل فى الشفاء إلا بالتوجه إلى ربه فألف القصيدة يمدح فيها رسول الله – ﷺ ، ويتوسل إلى ربه ، ويستشفع به أن يكشف عنه الضر . فأكرمه الله وشفاه . وتقع هذه القصيدة فى مائة وستين بيتا بداها بقوله :

أ مــــنْ تذكّــُــــر جيــران ِ بــذ ِى سلــَـــــم ِ
مـــزجــــــْت دمعــــــًا مــــن مُــقلة ِ بــــــــــــدَم ِ

أم هبَّــت الــريحُ مــن تلقــــــاء ِ كـــاظمة ِ
وأوْمض البرقْ فى الظلماء ِ من اضم ِ

وختمها بقوله :

أبياتــُها قد أتتْ ستين معْ مـــائة ِ   فــرِّجْ بها كَربنـَا يا واسِــعَ الكرم ِ

"وقد لاقت البردة لدى الخاصة والعامة قبولا واستحسانا ، ونسج على منوالها كثيرون ، كما شرحها وعارضها كثير من العلماء والشعراء" ([1])

ومن أشهر البديعيات :

١ ـ بديعية صفيّ الدين الحليّ (٧٥٠هـ) وهو شاعر عصره ، صنف فى المعانى والبيان . وقد مدح بعض الملوك والأمراء . وبديعيته مائة وخمسون بيتا من بحر البسيط وسماها " الكافية البديعية فى المدائح النبوية " ؛ ومطلعها :

إن جئت سَلْعًا فسلْ عن جيرة العلم
واقْرِ السلام على عُرْبٍ بذى سَلَمِ

وقد شرحها بعد فى كتابه : " شرح الكافية البديعية " ([2]) وهو شرح نفيس لقصيدته . كما يعد من كتب البيان العربى .

٢ ـ بديعية شمس الدين بن جابر الأندلسى (ت ٧٨٠هـ) ، وسمَّاها : " الحلة السِّيرَ فى مدح خير الورى " وهى على نهج بديعية الحِلِيّ وهى تتضمن مائة وسبعة وعشرين بيتا وفيها نحو ستين لونا من ألوان البديع غير أنه قدم المحسنات اللفظية على المعنوية ، ومطلعها :

بطيبـــــة انزلْ ويمم سيِّـــــــد الأمـــــم
وانثُر له المـــدح وانشرُ أطيب الكلِــمِ

٣ـ بديعية عزالدين الموصلى (٧٨٩هـ) وتقع فى مائة وخمسة وأربعين بيتا ، ومطلعها :

براعةٌ تستهلّ الدمع فى العِلَمَ
عبارةٌ عن نداء المفردِ العلمِ

---

[1] – انظر المدائح النبوية فى الأدب العربى : ١٦٣

[2] – تحقيق د/ نسيب نشادى . دار صادر ـــ بيروت

وقد شرح بديعيته فى كتاب سماه " التوصل بالبديع إلى التوسل بالشفيع " .

٤ ـ بديعية ابن حجة الحموى (ت ٨٣٧هـ) ومطلعها :

لـى فى ابتداء مـدحـكـم يا عُـربُ
براعـةٌ تستهلُّ الـدَّمع فى العلَم

والشاعر يضمن كل بيت ما يشير إلى اللون البديعى كما فى قولـه " براعة " يعنى : " براعة الاستهلال " . وتبلغ هذه البديعية مائة واثنان وأربعون بيتا . وقد شرحها فى كتابه : " خزانة الأدب " شرحا وافيا واربى على الغاية فى الاستشهاد بالأمثلة والتحليل . وللكتاب أهمية فى ميدان النقد والبيان .

٥ ـ بديعية عائشة الباعونية (٩٢٢هـ) ومطلعها :

فى حُسن مطلع أقمارى بذى سلَـــم
أصبحتُ فى زمرة العُشَّاقِ كالعلَم

وقد نظمتها على منوال تقى الدين بن حجة ، مع تسمية النوع البديعى تمسكا بطلاقة الألفاظ ، وانسجام الكلمات ...

وغير هذه البديعيات كثير نظمها ذوو الحب والصفاء لرسول الله ـ ﷺ ـ ومعظم هذه البديعيات يغلب عليها التصنع والتكلف وحشد الكثير من ألوان البديع مما جعل الكثير منها بحاجة إلى جهد ، وأناة وصبر فى حل رموزها .

هذا إلى أن كثرة الصنعة فى بعض أبياتها جعلتها ثقيلة فى النطق وعلى السمع . وبذلك صار الكثير من أبياتها عبئا على البيان العربى .

وألوان البديع تعد من البلاغة إذا وردت فيض البديهة ، مواتية للطبع ، ولم تكن من الكثرة فى النص واقتضاها الحال ، دون تكلف أو تصنع .
أما إذا أورد شئ منها متكلفًا ، أو خضع لكثير من الصنعة أو كان كثيرا فإنه يكون معيبا مذموما ، وبعيدا عن البلاغة ، وإليك هذا المثال ، وهو مما مثل به العلماء لـ "التفويف" وهو قول ابن زيدون :

تِـه احتمل واحتكِم اصبر وعز أهِـن
ودِل اخضعْ وقـُل واسمع ومُـر أطع

فإنك تجد كلاما غثا متكلفا مفككا ، بل إنك لا تستطيع حفظه إلا بصعوبة بالغة ولا تلبث بعد أن تنساه . فأى صنعة بديعية هذه؟!

واقرأ قول صفىِّ الدين الحلِىِّ :

سَـلْ سلـْسـلَ الريقُ لِـمْ لـَمْ يرْوِ حرَّ ظما
بـل بلـْبل القلبُ لما زادهُ ألما

فهو يريد : بناء التجنيس على ثلاثة أول البيت " سل سلسل" ، وثلاثة فى عجزه " بل بلبل " . وهذا النظم كما ترى كأنه أعجمى ، ولا شئ فيه من سحر البيان العربى . واقرأ قوله :

إذا زار دارى زَوْرٌ ودُودُ   أودّ وأوردُهُ ورْدَ وَدَّ

فبنى البيت على الحروف المقطعة ، مع تكرار بعض الحروف فصار معيبا .

يقول الإمام عبدالقاهر وهو يرسى دعائم الصلة بين اللفظ والمعنى : " ولن تجد أيمن طائرا ، وأحسن أولا وآخرا

، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان من أن ترسل المعاني على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ، فأما أن تضع نفسك أنه لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت فيه بعرض الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ ، والوقوع فى الذم " ([1]) .

وهذه دراسة لعدد وافر من المحسنات المعنوية واللفظية .

[1] – أسرار البلاغة : ١ / ١٦٠

أولاً:

المحسنات المعنوية

الطباق والمقابلة

أولا : الطباق :

وهوفى اللغة مأخوذ من : طابقَ الشئَ إذا وافقه وماثله ، وسمى بذلك لأنه مأخوذ من : طابق الفرس إذا وضع رجله مكان يده ، ويسمى أيضًا : المطابقة والتطبيق والتكافؤ والتضاد ([1])

قال الخليل بن أحمد : يقال : " طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألصقتها " ([2])

وانفرد قدامة بن جعفر بإطلاق اسم " الطباق " على ما عرف عند العلماء بالجناس حيث قال : وأما المطابق فهو : ما يشترك فى لفظة واحدة . ومما مثل به قول الإفوه الأودى :

وأقطعُ الهوْجل مستأنسًا   بهوجلَ عيرانةَ عنتريس

فلفظ : الهوجل فى هذا الشعر واحدة قد اشتركت فى معنيين ، لأن الأول يعنى : الأرض ، والثانى : الناقة ([3])

قال ابن منظور ([4]) :

" والمطابق من الخيل والإبل : الذى يضع رجله موضع يده ، وتطبيق الفرس : تقريبه فى العدْو .. والمطابقة : المشى فى القيد ، وهو الرَّسْف . والمطابقة : أن يضع الفرس رجله فى موضع يده .. ومطابقة الفرس فى جريه : وضعُ رجليه مواضع يديه "

---

[1] – عقود الجمان : ٢/٧٩

[2] – العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده : ٢/٦

[3] – نقد الشعر : ١٦٢

[4] – اللسان : (طبق)

والطباق عند علماء البلاغة : هو الجمع بين المتضادين ؛ أى معنيين متقابلين فى الجملة .. سواء أكان هذا التقابل حقيقيا أم اعتباريا كتقابل التضاد أو غيره مثل : البياض والسواد ، والعمى والبصر ، والتقابل بين الاثنين والجمع([1])

وللطباق أقسام كثيرة وذلك من حيث الإيجاب والسلب ، ومن حيث نوع الكلمتين ، أو الاسمية أو الفعلية أو الحرفية ، وكذا من حيث الظهور والخفاء .. الخ وسنبين ذلك .

طباق الإيجاب : وهو يكون بين الكلمات المتضادة من حيث الوضع اللغوى ، أى لا يكون سببه اختلاف الكلمات بالإيجاب والسلب ، وهو يكون بين الاسمية ، والفعلية ، والحرفية ، أو بين نوعين مختلفين .

١ ـ فمن أمثلة الطباق بين الفعلين قوله تعالى ([2]) : " تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير " .

الطباق بين الفعلين : "تؤتى" و "تنزع" ، وبين"تعز" و "تذل" .

والطباق هنا ليس محسنا بديعيا وكفى ، ولكنه لون من ألوان الإعجاز البيانى ، وذلك أن " المقام مقام بيان طلاقة القدرة الإلهية فى الملكوت ، وبسط سلطانها فى جميع المخلوقات . وذلك لا يتم إلا بالجمع بين الضدين ، وبأنه - سبحانه - يقدر على الأمرين : الإيتاء أو ما فى معناه ، والنزع أو ما فى معناه ، وكذلك الإعزاز والإذلال ، يعز

---

[1] – بغية الإيضاح : ٤/١

[2] – سورة آل عمران : ٢٦

من يشاء ويذل من يشاء "لا معقب لحكمه" ([1]) ولا معقب لقضائه ، لأنه - سبحانه - صاحب الأمر كله ([2])
ومنه قولـه تعالى : " وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا " ([3]) وقال الرسول - ﷺ - للأنصار : " إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع " ([4]) الطباق بين " تكثرون " و " تقلون " .

وقال أبو صخر الهذلي :

أما والذي أبكى وأضحك والذي
أمات وأحيا والذي أمره الأمر

وقال بشار :

إذا أيقظتك حروبُ فنبّه لها عمْرا ثم نَمْ

الطباق بين : "أيقظ" و "نم" ، وكذا بين "نبّه" و "نم" ،
وقال زهير :

ليث بعثّر يصطادُ الرجال إذا
ما الليثُ كذّب عن أقرانهِ صدقا

وقال علي - رضي الله عنه - : " من رضى عن نفسه كثير من يسخط عليه " . الطباق بين : رضى ، ويسخط .

٢ - ومثال الطباق بين الاسمين قوله تعالى في أصحاب الكهف : " وتحسبهم أيقاظا وهم رقود " ([5]) التضاد بين " أيقاظا " جمع : يقظ ، و" رقود " .

---

[1] - سورة الرعد : ٤١
[2] - دراسات في علم البديع : ١٥ د/ عبدالله محمد سليمان هنداوي
[3] - سورة النجم : ٤٣، ٤٤
[4] - كنز العمال : ٨٩/٤ ، والإيضاح : ٤/٤ ، وأنوار الربيع : ٣٤/٢
[5] - سورة الكهف : ١٨

وقولـه سبحانه " ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعشيا " (1)
التضاد بين البكرة والعشى .
وهذان الوقتان هما فى الدنيا فقط ، وقد خاطبنا الله - ﷻ - بما نعرف - والمراد - والله أعلم - أن الله تفضل على المؤمنين من أهل القبور بالرزق الدائم ، والعطاء المستمر ؛ إذ الزمن لا يخلو عن البكرة والعشى .
يقول الزمخشرى : " أراد : دوام الرزق ودروره كما تقول أنا عند فلان صباحا ومساء ، وبكرة وعشيا ، تريد الديمومة ، ولا تقصد الوقتين المعلومين" .
وقال تعالى : " الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور " (2) وقال عز شأنه : " وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور " (3)
ومن الأمثلة ما جاء فى قولـه تعالى " الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (4) طوبق بين : " الليل والنهار " ، وكذا بين " سرًا وعلانية " وفيه دليل على فضل الصدقة .
وقد بين الله تعالى أن هؤلاء المؤمنين ينفقون الصدقة سرًا ، والزكاة علانية ليكون هذا حثا لغيرهم على إخراجها .
ويفاد من الآية الكريمة فضيلة صدقة السر ، حيث قدم الليل على النهار ، والسِّر على العلانية (5) . ولذا فإننا نجد

---

1 - سورة مريم : ٦٢
2 - سورة البقرة : ٢٥٧
3 - سورة فاطر ١٩ ، ٢٠
4 - سورة البقرة : ٢٧٤
5 - انظر : حاشية محيى الدين شيخ زاده على تفسير القاضى البيضاوى : ٥٨٥/١

من النصوص القرآنية ما يؤيد ذلك ؛ قال تعالى : " وينفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية " ([1])

وقال - ﷺ - : " خير المال عين ساهرة لعين نائمة "([2])

فالمراد بقوله : " عين ساهرة " : عين الماء الجارية التى لا ينقطع جريها ليلا كما لا ينقطع نهارا ، والمراد بقوله : " عين نائمة " عين صاحبها ([3]) .

وقال - ﷺ - : " أوصانى ربى بتسع : أوصانى بالإخلاص فى السِّر والعلانية , بالعدل فى الرضا والغضب ، وبالقصْد فى االغِنَى والفقر . وأن أعفوَ عمن ظلمنى . وأعطى من حرمنِى . وأصلَ من قطعنى . وأن يكون صمتى فِكرًا . ونطقى ذكرًا . ونظرى عِبرًا " .

الطباق بين كل من : " السر والعلانية " ، " والرضا والغضب " و " الغنى والفقر " و " الصمت والنطق "

وقال الحسن - ﷺ - : " كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب " الطباق بين : " الباطل والحق " .

وقال امرؤ القيس :

مِكَــرٍّ مِفَرٍّ مُقْـبلٍ مُدْبِـرٍ مــعًا
كجُلْمودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ

المطابقة بين كل من " مكر " ، و " مفر " ، و " مقبل " ، و" مدبر " وهى صفات تدل على المبالغة فى شدة سرعة فرسه .

وقال آخر :

وتوقعى منك الإساءة جاهدًا والعدل أن أتوقعَ الإحسـانـا

الطباق بين " الإساءة " و" الإحسان " .

[1] – سورة إبراهيم : ٣١
[2] – صفوة الصفوة : ١ / ٢٠٥
[3] – انظر : المجازات النبوية : ٧٦

٣ ـ الطباق بين حرفين باعتبار متعلقهما . قال تعالى : " لها ما كسبت وعليها ما اكتسبتْ " ([1]) ، وقال ـ سبحانه ـ : " ولهنَّ مثلُ الذى عليهن بالمعروف " ([2]) المطابقة بين "اللام"، و" على " ، وذلك أن اللام فيها معنى المِلْكية والكسب ، و " على " فيها معنى التحمل والضرر ، ولذلك تقول : لى كذا فى مقام ، وعلى فلان كذا فى مقام آخر .

وقال الشاعر :

على أننى راضٍ بأن أحمِلَ الهوى
وأخلُص منــه لا علىَّ ولا لِيـــا

٤ ـ وقد يكون طباق الإيجاب من كلمتين مختلفتين كما فى قولـه تعالى : " أومن كان ميتـًا فأحييناه " ([3]) .
فالطباق بين كلمة " ميتا " وهى اسم ، و " أحيا " وهو فعل . وهما استعارتان للضلال والهداية . أى : من كان ضالا فهديناه . وقال تعالى : " ومن يضلل الله فما له من هاد " ([4])

وقال طرفة :

نحن فى المشتاةِ ندعو الجفلَـى
لا تـرى الآدِب فينـــا ينتـقـرُ

المشتاة : وقت الجدب فى الشتاء . الجفلى : الدعوة العامة ، ينتقر : يخص بالدعوة أفرادا دون آخرين . فالمطابقة بين " الجفلى " وهى اسم ، و " ينتقر " وهى فعل .
وقال طفيل يصف فرسه :

---

[1] – سورة البقرة : الآية الأخيرة
[2] – سورة البقرة : ٢٢٨
[3] – سورة الأنعام ١٢٢
[4] – سورة الرعد : ٢٣

بِساهِمِ الوجه لم تُقطع أباجِلهُ
يُصان وهو ليوم الرَّوع مبذولُ

المطابقة بين الفعل : " يُصان " واسم المفعول " مبذول "
ومن الأمثلة قول القائل : " الكريم واسع المغفرة إذا ضاقت المعذرة " الطباق بين " واسع " و " ضاقت " .

طباق السلب : وهو ما اختلف فيه الضدان بالإيجاب والسلب.
قال الخطيب : وهو الجمع بين فعلى مصدر واحد : مثبت ومنفى ، أو أمر ونهى " ([1])

ومن أمثلته قولـه تعالى : " ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا " ([2])

وقال سبحانه : " هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون" ([3]) الطباق بين : " لا يعلمون " و " يعلمون " فى الآيتين الكريمتين .

وقال سبحانه : " يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم " ([4]) قدم النفى فى إحدى الجملتين على الأخرى ليتم الطباق ، ويعلم الفرق بين المراد بجملة الإثبات وإنه على النقيض من المراد بجملة النفى .

ومثال تقدم النهى فى أحدهما ما جاء فى قولـه تعالى " فلا تخشوا الناس وأخشون " ([5]) الطباق بين النهى عن فعل الخشية من الناس فى جانب ، والأمر به متعلقان بذات الله - تعالى - فى جانب آخر ([6])

---

[1] – الإيضاح : ٤/٧
[2] – سورة الروم : ٦ ، ٧
[3] – سورة الزمر : ٩
[4] – سورة النساء : ١٠٨
[5] – سورة المائدة : ٤٤
[6] – دراسات فى علم البديع : ١٩

ومنه قولـه تعالى " اتبِعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء "([1])

ومن شواهد هذا النوع ما روى أن بِشر بن هارون([2]) (ظهر منه فرح عند الموت فقيل له : أتفرح بالموت ؟ قال : ليس قدومى على خالق أرجوه كمقامى مع مخلوق لا أرجوه) طوبق بين : " أرجوه " و " لا أرجوه " .

ومن أمثلته قول الشاعر ([3]) :

ونُـنكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا يُـنكـرون القـول حـين نقـول

وقال البحترى :

يقيض لى من حيث لا أعلم النوى
ويسرى إلىَّ الشوقُ من حيث أعلم

وقال أبو الطيب :

ولقد عرفتَ وما عرفتَ حقيقـة
ولقـد جهلتَ وما جهِلت خمولا

رُزقـوا ومـا رُزقـوا سمـاح يـد
فكـأنهـم رُزقــوا ومــا رزقــوا

الطباق فى المثالين بين : " جهلت " و " ما جهلت " وبين " رزقوا " و " ما رزقوا " .

وقال جرير :

أ تصحو أم فؤدُك غير صاح
عشيـة هـمَّ صحبُـك بالـرواح

طابق بين : " أتصحوا " و " غير صاح " .

---

[1] – سورة الأعراف : ٣
[2] – محاضرات فى علم البديع : ٣٨
[3] – الإيضاح : ٨/٤

الطبـاق الخـفى :

قد يدق الطباق ، ولذا فإنه يحتاج إلى فكر وإعمال نظر ، وفضل تأمل ، ومن أمثلته قولـه تعالى فى قوم نوح : " مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا " ([1])

الطباق بين الإغراق ، والإحراق المسبب عن الإدخال فى النار ، وليس بين : " اغرقوا " , " أدخلوا نارا " .

يقول أسامة بن منقذ : وأخفى تطبيق فى القرآن قولـه سبحانه : " مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا " .

ومن ذلك قولـه تعالى فى قصة أصحاب القرية : " قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ إن أنتم إلاَّ تكذبون ، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون " ([2]) فأصحاب القرية زعموا أن الرسل كاذبين والرسل يردون عليهم بأنهم صادقون ولكن بطريقة فيها خفاء ، ولا شك أن بين الصدق والكذب طباقًا .

يقول الزمخشرى ([3]) : "وقولـه : (ربنا يعلم) جار مجرى القسم فى التوكيد وكذلك قولهم : (شهد الله و علم الله). وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم : " وما علينا إلا البلاغ المبين " أى الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته ، وإلا فلو قال المدعى : " والله إنى لصادق فيما أدَّعى ولم يحضر ألبتَّه كان قبيحا " .

ومن الطباق الخفى قول أبى تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أونسُ
قنـا الحـظ إلا أن تـلك ذوابـل

---

[1] – سورة نوح : ٢٥
[2] – سورة يس : ١٥ ، ١٦
[3] – الكشاف : ٣/٣١٨

المطابقة بين : " هاتا " و " تلك " ، وهما اسما إشارة للقريب ، والبعيد وكان هذا من الطباق الخفى لأن معانيها لا تظهر إلا باعتبار متعلقاتها .

ومن ذلك قول الشاعر:

ما إن ترى إلا حساب بيضًا وضَّحاَ
إلا بحيث ترى المنــــايا سوَّدا

فقد استُعيرَ " بيضا وضحا" لنقاء الاحساب . ثم كنى عن القتل فى الحرب بقوله : " المنايا سودا " ولا مطابقة بين هذين المعنيين . ولكن بين معنييهما الحقيقيين .

وقال البحترى فى بركة الخليفة المتوكل :

فحاجبُ الشمس أحيانا يضاحكها
وريقُ الغيث أحيانا يُباكيها

عبر عن الإشراق بالمضاحكة ، وعن سقوط الأمطار بالمباكاة ولا تقابل بين هذين المعنيين المجازيين ، وإنما التقابل بين المعنيين الحقيقيين لكل من : يضاحك ، ويباكى .

ومن أمثلته ما جاء فى قوله تعالى : " وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هوْ وإن يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير " ([1])

يقول الشهاب الخفاجى : " المقابل للخير : الشر ، وقد قابله بالضر وهو أخص منه . وهذا من خفى الفصاحة كما قال ابن عطية عن قانون الصنعة أوفق بالمعنى ، وألصق بالمقام " .

وهذا النوع يسميه كثير من العلماء : **التدبيج** ؛ وهو : أن يذكر فى معنى التحسين يقال : " دبَّج الأرض بالمطر أى : زينها بالرياض ، وأصبحت الأرض مديحة أى مزينة ([2])

---

[1] – سورة الأنعام : ١٧

[2] – انظر : أساس البلاغة : ٢٦١/١

فمثاله في الكناية قول أبى تمام يرثى محمد بن حميد الطوسي:

تـردَّى ثياب المـوتِ حمْـرًا فمـا أتـى
لها الليل إلا وهْى من سندس خضرُ

تردى : أى اتخذها رداء . السندس : رقيق الحرير .
يقول : الثياب التى أحمرت بسب القتل صارت من سندس خضر . فقد عبر بالحالة الأولى عن القتل ، وبالثانية عن دخول الجنة . وهما كنايتان عما قصد الشاعر .

وقال الحريرى : فمذ أزورّ المحبوبُ الأصفر ، واغبرّ العيش الأخضر أسودَّ يومى الأبيض ، وأبيضَّ فوْدى الأسود حتى رثَى لى العدو الأزرق ، فيا حبَّذا الموتُ الأحمر .
المحبوب الأصفر : تورية بالذهب ، والعيش الأخضر : كناية عن طيبه ، الموت الأزرق : الخالص العداوة ؛ لأن زرقة العيون من ملامح الشر ، الموت الأخضر : كناية عن الموت الجديد أو الحديث .
فقد طابق الحريرى بين هذه الألوان وهو لا يقصدها ولكن يقصد ما وراءها من المعانى السابقة .

وقال أبوتمام :

ما إن ترى الأحسابَ بيضًـا وضُحًّا
إلا بحيثُ ترى المنـــــايا سُـودًا

المتبادر إلى الذهن المطابقة بين معنى : " بيضا " و "سودا" ولكن الشاعر قصد بقوله : " بيضا وضحا " إلى نقاء الأحساب من العيب على سبيل الكناية ، وبقوله : " المنايا سودا " إلى الكناية عن القتل .

ومن خفى الطباق قول الأعشى يمدح سيدنا محمد - ﷺ - :

نبـي يـرى مـالاتـرون وذكـره
أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

فالطباق خفى بين : أغار ، وأنجدا ، لأن معنى أغار : أتى " تهامة " ، وتهامة غور ، وأنجد : أى أتى نجدا – فهما مكانان .

والشاعر لا يقصد أن ذكر النبى ورسالته أتت هذين المكانين فقط ، وإنما يقول : إن ذكره عمّ أرجاء الجزيرة العربية . وذلك على سبيل الكناية ([1])

وقال دِعبل الخُزاعى :

لاتعجبى يـا سلم من رجـل ضحك المشيب برأسه فبكى

المعنيان الحقيقيان للضحك والبكاء متضادان ، والشاعر جعل الضحك استعارة لظهور المشيب وسرعة انتشاره برأسه ؛ ولذا كان بكاء الشاعر ، فالتضاد إنما هو باعتبار المعنيين الحقيقيين للضحك والبكاء .

ومن الأمثلة قول ابن حيوس :

إن تُرد علـم حـالـهـم عـن يقـيـن
فـالقهـم يـــوم نـائـل أو نـزال

تلق بيض الوجوه سود مثار النقع
خضر الأكناف حمر النصال

كنّى بقولـه : " بيض الوجوه " عن كرم الممدوحين ، وكنى عن شجاعتهم بباقى البيت .

الطباق بين : البياض والسواد ، والخضرة والحمرة .

وفى الشاهد محسن آخر هو : " اللفّ والنشر " وذلك أنه قال :

[1] – ألوان من البديع : ٢٠ بتصرف

" يوم نائل أو نزال " إذ التقدير : يوم نائل ، ويوم نزال ثم ذكر ما لكل منهما بلا تعيين ..

ومن تدبيج التورية قوله تعالى : " وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر" ([1]) المعنى القريب لكل من الخيطين : الأبيض والأسود ليس مرادًا ، وإنما المراد منهما : نور النهار ، وظلمة الليل ، وهما المعنيان المروى عنهما ([2])

ويلحق بالطباق شيئان :

أحدهما : الطباق الخفى ، وقد مرت أمثلته . ومنها أيضا قوله تعالى : " أشداء على الكفار رحماء بينهم " ([3]) فإن الرحمة مسببة عن اللين الذى هوضد الشدة . وعليه قوله تعالى : " ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله " ([4]) فإن ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المضادة للسكون .

والعدول عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل ، لأن الحركة ضربان : حركة لمصلحة ، وحركة لمفسدة والمراد الأولى ، لا الثانية ([5])

والثانى : ما يسمى إبهام التضاد كقول دِعبس السابق :

لاتعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

فالضحك أريد به : ظهور الشيب على سبيل الاستعارة التبعية.

---

[1] – سورة البقرة : ١٨٧

[2] – البلاغة ذوق ومنهج : ٥٠٦

[3] – سورة الفتح : الآية الأخيرة

[4] – سورة القصص : ٧٣

[5] – الإيضاح : ٤/١١ ، ١٢

وليس ثمة طباق بين هذا المعنى المجازى والبكاء . وإنما الطباق بين المعنيين الحقيقيين .

ثانيا : المقابلة :

جعلها الخطيب القزوينى نوعا من الطباق ولا فرق بينهما إلا من حيث العدد . فالطباق التضاد بين معنيين متقابلين ، أما المقابلة فإنها تكون بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما .

قال الخطيب : ودخل فى المطابقة ما يخص باسم المقابلة : وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب . والمراد بالتوافق : خلاف التقابل [1]

١ ـ فمثال مقابلة اثنين باثنين قوله تعالى : " فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرًا " [2] قوبل الضحك والقلة ، بالبكاء والكثرة .

وقال الله سبحانه : "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" [3]

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : " إن الرفق لا يكون فى شئ إلا زانه ولا ينزع من شئ إلا شانه " .

وقال النابغة :

فتًى تمَّ فيه ما يسر صديقه
على أن فيه ما يسوءُ الأعاديا

قابل : ما يسر صديقه بقوله : ما يسوء الأعاديا .

٢ ـ ومثال مقابلة ثلاثة بثلاثة قول الشاعر :

---

١ – الإيضاح : ٤ / ١١
٢ – سورة التوبة : ٨٢
٣ – سورة البقرة : ١٨٥

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا

وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

وقال أبو الطيب :

فلا الجود يفنى المال والجَدّ ُ مقبل

ولا البخل يبقى المال والجود مدبر

ومنه قول البحترى فى الفتح بن خاقان :

فاحجم لما لم يجدْ فيك مطمعا   وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

وقال المنصور يوما لأحد جلسائه : " بلغنى أنك بخيل " فقال الرجل له : " يا أمير المؤمنين : ما أجمد فى حق ، ولا أذوب فى باطل "

المقابلة بين : أجمد ، وأذوب ، وفى حق وباطل .

وقال الشاعر متعجبا :

فواعجبا كيف اتفقنا فناصح   وفىٌ ومطوىٌ علىّ الغلّ غادر

المقابلة بين : النصح والطى على الغل - والوفاء والغدر .

٣ - ومثال مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى : " فأما من أعطى وأتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى"([1])

وجاء فى وصية أبى بكر - رضى الله عنه - : " هذا ما أوصى به أبوبكر عند آخر عهده بالدنيا ، خارجا منها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها "

المقابلة بين : آخر وأول ، والدنيا والآخرة ، وخارجا وداخلا ، ومنها وفيها .

٤- ومثال مقابلة خمسة بخمسة قول أبى الطيب :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى

وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

---

[1] - سورة الليل : ٥ ــ ١٠

٥ ـ وأما مقابلة ستة بستة فقول الشاعر :

على رأس حرٍّ تاج عز يزينه وفى رجل عبد قيد ذل يشينه

ولا يخفى أن هذا تكلف ممقوت فإن الإنسان لا يستطيع أن ينطق بالبيت على سجيته ، ولكن يمعن فى التأمل كى لا يزل فى وصف الحر أو العبد على ما أراد الشاعر .

وقال السكاكى : المقابلة : أن يجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضديهما ثم إذا شرطت هنا شرطا شرطت هنالك ضده كقولـه تعالى : " فأما من أعطى ... " الآيتين .

لما جعل التيسير مشتركا بين الإعطاء والإبقاء والتصديق جعل ضده وهو التعسير مشتركا بين أضداد تلك ، وهى : المنع والاستغناء والتكذيب .

وقد عاب النقاد المقابلة فى قول أبى دلامة :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا

وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

حيث اشترط فى حسن الدين والدنيا الإجتماع ، ولم يشترط فى قبح الكفر والإفلاس ضده . بل شرط فيهما الإجتماع أيضا .

والبيت معيب من زاوية أخرى وهى أن قافيته مستدعاه لأجل الوزن ، ومتنافيه مع المعنى ، لأن ما ذكره غير مختص بالرجل ([1])

---

[1] – علم البديع : دراسة تاريخية وفنية لاصول البلاغة ومسائل البديع : ١٥٤

وتبدو **بلاغة الطباق** والمقابلة فى الجمع بين الأمرين أو الأمور المتضادة ، فالضد أقرب خطورا بالبال عند ذكره ضده وقد قيل :

الضد يُظهر حسنَه الضدُّ

وهذا مما يزيد من جمال النص ويرفع من قدره وحسنه . هذا إلى أن الجمع بين الأمور المتضادة لبيان الفرق بينهما لا تتأتى إلا بذكرها كقوله تعالى : " وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور " [1]

فالجمع بين متضادين أو أكثر يكون لمزايا وفوائد يعين عليها الحال والمقام .

والطباق أمر فطرى يشيع فى كلام العامة والخاصة فهم يرون فى الكون : السماء والأرض ، والطويل والقصير ، والأسود والأبيض ... ويقولون الحلو والمرّ ، والجنة والنار .

وقد يأتى الطباق متكلفا مصنوعا ؛ فيكون معيبا ، لأنه صار مجرد حلية لفظية . ومن ذلك قول الشاعر :

من كان يعلم كيف كان رقـَّة   هو مقسم أن الهواء ثخينُ

فالمطابقة بين " رقة ، وثخين " فاسدة . هذا إلى جانب رداءة المعنى ؛ فما وصف الهواء بهذه الصفة .

وقد مثل أبو هلال للمقابلة الفاسدة بنحو : فلان شديد البأس ، نقى الثغر ، أو جواد الكف ، أبيض الثوب .

قال : ووجه الكلام أن تقول : فلان شديد البأس عظيم النكاية ، أو جواد الكف ، كثير العرف .

---

[1] – سورة فاطر : ١٩ ، ٢٠

مراعاة النظير

ويسمى التناسب والتوافق ، والائتلاف وكلها بمعنى واحد . وفرق بينه وبين الطباق - فالطباق يكون فى الجمع بين الأشياء المتضادة فى الجملة ومراعاة النظير . والجمع فيه بين الأشياء المتناسبة .

وعرفه الخطيب بقوله : أن يجمع بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد ([1]) وقد راعى القدماء مراعاة هذا التناسب فى كلامهم ، ولذا فإنهم عابوا من الكلام ما جاء كلامه على خلاف ذلك .

يقول الجاحظ ([2]) : وأنشدنى أبوالعاصى قال : أنشدنى خلف الأحمر فى هذا المعنى :

وبعضُ قريض القوم أبناء عَلـَّة
يكد لسان الناطق المتحفظ

وقال أبوالعاصى : وأنشدنى فى ذلك أبوالبيداء الرِّياحى :

وشِعـر كبعـر الكـبْش فـرّق بينه
لسان دعىٍّ فى القريض دخيلُ

ثم بين الشطر الأول من قول خلف بقوله :

إذا كان الشعر مستكرها ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها ملائما لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العَلاّت ([3])

---

[1] – الإيضاح : ٤ / ١٧

[2] – البيان والتبيين : ١ / ٦٦

[3] – العلة : الضرة ، وبنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شـتى . سميت بذلك لأن الذى تزوجها على أولى قد كانت قبلها ثم عل مـن هذه ، قال ابن برى : وإنما سميت علة لأنها تعل بعد صاحبتها مـن العلل . اللسان (علل)

وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جانب أختها مرضيا. موافقا كان على اللسان عند إنشاده مؤونه قال : وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدًا ، وسبك سبكا واحدا ..

وأما قوله : " كبعر الكبش " فإنه ذهب إلى أن بعَر الكبش يقع متفرقا ، غير مؤتلف ولا متجاوز ، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر ، تراها متفقة ملساء لينة المعاطف ، وتراها متباينة ومتنافرة مستكرهة.

وفى هذا المعنى يقول ابن قتيبة : "وتتبين التكلف فى الشعر بان ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره ، ومضموما إلى غير لفقه"([1])

وعدَّ محمد بن يزيد المبرد ([2]) هذا الشعر من النظم الردئ واستشهد بقول أبى البيداء السابق . فالمعنى على تشبيه النظم الذى لا تناسب بين أجزائه ببعر الكبش فى التفرق وعدم التلاؤم ، وهو تشبيه مستوحى من البيئة ، وتتجلى فيه إصابة التشبيه ([3])

ومن أمثلة هذا اللون البديعى قوله تعالى: "الشمس والقمر بحسبان " ([4]) فالشمس والقمر كلاهما كوكبان سماويان. وقوله سبحانه: " كأنهن الياقوت والمرجان"([5]) فالياقوت والمرجان من الأحجار الكريمة وهى تصان ويحرص عليها ، ولذا شبه بهما نساء الجنة.

---

[1] – الشعر والشعراء : ١ / ٦٩

[2] – الكامل فى اللغة والأدب : ٢ / ١٦١

[3] – التشبيه عند المبرد فى كتاب الكامل : دراسة بلاغيـــة نقديـــة : ٣٨ للمؤلف

[4] – سورة الرحمن : ٥

[5] – سورة الرحمن : ٥٨

ومن أمثلته قوله تعالى فى المنافقين : " وإنَّ منكم لمن ليبطِّئن" ([1]) أكد الفعل بنون التوكيد الثقيلة مراعاة لحال المنافقين الداعية إلى تباطئهم عن الجهاد ، ومحاولة إبطاء غيرهم معهم .

وقال بعضهم يمدح وزير معز الدولة البويهى : " أنت أيها الوزير إسماعيلى الوعد ، شُعيبى التوفيق ، يُوسفى العفو ، محمدى الخلق " فبين هذه الصفات التى وصف بها هؤلاء الرسل - عليهم الصلاة والسلام - والتى أريد أن تجعل صفات هذا الوزير مشابهة لها مناسبة ظاهرة .

وقال البحترى فى وصف الإبل التى أنضاها السير :

كالقِسىِّ المعطفات بل الأسـ ـــهم مبريَّة بل الأوتار

بين القسى ، والأسهم ، والأوتار تناسب فى الدقة والنحافة . والقسى : جمع قوس ، والمبرية : المنحوتة ، والأوتار : جمع وتر وهو الخيط الذى يشد بين طرفى القوس .
ومن حسن هذا البيت أنه جمع بين التشبيه والتتميم وحسن النسق . ويتضح التتميم بأن الشاعر بعد أن شبه الخيل بالقسى تمم هذا التشبيه بالوصف بعده .

والبيت أفضل بيت وقع فيه الاستقصاء لمولَّد ، وما بلغ هذا المبلغ فى الجودة إلا لأنه أشرقت عليه أنوار كلام النبوة الذى أخذ معناه بلفظ مصالته ([2]) منه ، وهو قول رسول الله - ﷺ - : " لو صليتم لله حتى تعودوا كالقسىِّ ، وصمتم حتى تعودوا كالأوتار" ([3])

---

[1] - سورة النساء : ٧٢
[2] - أى : بلفظ واضح ظاهر
[3] - بديع القرآن : ٢٤٨

وقال آخر :

كـأن الثـريـــــــا علقـتْ فـى جبينـه
وفى خده الشّعرى وفى وجهه البدر

الثريا : صورتها ستة كواكب متقاربة حتى كادت تتلاصق وأكثر الناس يجعلها سبعة . سميت بهذا لأن مطرها عنه تكون الثروة ، وهى تصغير " ثروى " تصغير تكبير ([1]) ، والشعرى : كوكب فى الجوزاء فقد قرن الشاعر بين هذه الكواكب .

ومن مراعاة النظير : ائتلاف اللفظ مع المعنى . وذلك بأن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضا ، ليس فيها لفظة نافرة عن اخواتها ، غير لائقة بمكانها ، كلها موصوف بحسن الجوار .

ومن أمثلته قوله تعالى : " ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار " ([2]) . فإنه لما كان الركون إلى الظالم دون فعل الظالم . وجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالم . ومس النار فى الحقيقة دون الاحراق . ولما كان الاحراق عقابا للظالم أوجب العدل أن يكون المس عقاب الراكن إلى الظالم .

وخُصَّ المسَّ ليشير به إلى ما يقضى الركون من العقاب ، ويميز بين ما يستحق الظالم وبين ما يستحق الراكن له من العقاب ([3]) .

ومن ثم توافق اللفظ مع المعنى ملاء مة للحال والمقام . وفيه تنفير عن مساندة الظالم وتشجيعه على تصرفه البغيض .

---

[1] – ا للسان (ثرى)
[2] – سورة هود : ١٣
[3] – بديع القرآن : ٧٧ ، ٧٨ باختصار

وقد بين أعرابى خطأ قارئ يقرأ (1) : " فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم" ولم يكن يقرأ القرآن ؛ فقال : إن هذا ليس بكلام الله ؛ لأن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ؛ لأنه إغراء عليه (2) فقد أدرك الأعرابى بفطرته ، وذوقه أن فى القراءة خطأ ولا تناسب بين الالفاظ والمعانى . وكلا م الله ـ تعالى ـ يَجلُّ عن ذلك .

تشابه الأطراف :

هذا المحسن يجعله بعض العلماء من مراعاة النظير ، وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله فى المعنى كقوله تعالى: " لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير " (3)

فإن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر ، والخبرة تناسب من يدرك شيئا ، فإن من يدرك شيئا يكون خبيرا به (4) فلذا تناسب النظم الكريم .

وقال تعالى : " له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد " (5) قال : " الغنى الحميد " لينبه على أن ما له ليس لحاجة بل هو غنى عنه جواد به ، فإذا جاد به حمده المنعَم عليه .

قال الخطيب : " ومن خفى هذا الضرب قوله تعالى : " إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز

---

1 – الآية ٢٠٩ من سورة البقرة ، وتصحيحها : " فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم "

2 – بديع القرآن : ٧٧ ، ٧٨ باختصار

3 – سورة الأنعام : ١٠٣

4 – الإيضاح : ٤ / ١٨

5 – سورة الحج : ٦٤

الحكيم " ([1]) فإن قوله " وإن تغفر لهم " يوهم أن الفاصلة : الغفور الرحيم . ولكن إذا أنعم النظر عُلم أنه يجب أن تكون ما عليه التلاوة ، لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ([2])

ومن الأمثلة قوله تعالى : " هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم " ([3]) فالآية تتحدث عن خلق السموات والأرض وما أودع فيها من عجائب خلقه ، فهو سبحانه المتصرف فى العالم العلوى والسفلى ومن ثم كانت خاتمة الآية " وهو بكل شئ عليم " فإن هذا لا يصدر إلا عن علم .

إيهام التناسب :

وهو الجمع بين معنيين غير متناسبين بلفظين يكون لهما معنيان متناسبان وإن لم يكونا غير مقصودين .

ومن أمثلته قوله تعالى : " الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان " ([4]) فإذا فسر " النجم " بالكوكب كان مع ما قبله من مراعاة النظير ، وإذا فسر بالنبات الذى لا ساق له كان مناسبا لما بعده " الشجر " من حيث المعنى مع أنه من حيث اللفظ مناسب لما قبله ، فلذا كان من "إيهام التناسب" .

وقال عمر بن أبى ربيعة فى " القَتُول " :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت بهَرًا   عدد النجم والحصى والتراب

وقد بين المراد بالنجم بقوله ([5]) :

---

[1] – سورة المائدة : ١١٨

[2] – الإيضاح : ٤ / ١٩

[3] – سورة البقرة : ٣٩

[4] – سورة الرحمن : ٥ ، ٦

[5] – انظر : الصور البديعية فى كتاب الكامل لمحمد بن يزيد المبرد : ٢١ ، ٢٢ للمؤلف

"فيه قولان : أحدهما أنه أراد بالنجم : النجوم ، ووضع الواحد فى موضع الجمع ، لأنه للجنس .
والوجه الآخر : أن يكون ما نجم من النبت ، وهو : ما لم يقم على ساق والشجر : ما قام على ساق .. قال الله - عز وجل - " والنجم والشجر يسجدان " .

بلاغة التناسب : لا يستحق الكلام أن يوصف بالبلاغة إلا إذا تناسبت أجزاؤه ، وتلاء مت معانيه ، فليس النظم ضم كلمة إلى كلمة كيفما جاء واتفق ، ولكن نظم الكلم والعبارات يكون تابعا للمعانى .

يقول ابن طباطبا : " ينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره ، وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه ؛ فيلائم بينها ؛ لتنتظم له معانيها ، ويتصل كلامه منها .. فلا ينتبه على ذلك إلا من دق نظره ، ولطف فهمه " ([1]) وبذلك يكون التأليف قويا متلاحم الأجزاء ، قوى البنيان ، سليما من العيوب .

فمراعاة التناسب من أسباب جودة النظم وبذلك تترابط المعانى وتتلاءم . وهو أمر دعا إليه علماء البلاغة وأرجعوا إليه الكثير من مزايا النظم وبلاغته . وبذلك تبدو صلة هذا المحسن البديعى بمباحث النظم .

* * *

---

[1] - عيار الشعر : ٢٠٩

التفويف *

وهو أن يؤتى فى الكلام بمعان متلائمة فى جمل مستوية المقادير ، أو متقاربة ، وهو يكون بالجمل الطويلة ، والمتوسطة ، والقصيرة ([1])

فمثال ما جاء منه بالجمل الطويلة قوله تعالى : " الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين " ([2])

وقال عنترة :

إ ن يلحقوا اكرُر وإن يستلحقوا
اشدُد وإن نزلوا بضنك أنزل

وقال الشاعر فى وصف السحاب :

تسربل وشيًا من ُخُزوز تطرزت
مطارفها طُرزًا من البرق كالتبر
فوشى بلا رقم ونقش ُ بلا يد
ودمعُ بلا عين وضحك بلا ثغر

ومن مجيئه فى الجمل المتوسطة قوله تعالى : " تُولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتُخرج الميت من الحىِّ "([3])

فى البيت الثانى أربع جمل متساوية ، ومعانيها متناسبة . فهو من التفويف .

---

* " الفوف : ثياب رقاق من ثياب اليمن موشاة .. وبرد مفوف : رقيق " اللسان (فوف) فالمادة توحى بالجمع بين الأشياء المتناسبة.

[1] – الإيضاح : ٤ / ١٩ ، ومحاضرات فى علم البديع : ٤٧

[2] – سورة الشعراء : ٧٩ ــ ٨٢

[3] – سورة آل عمران : ٢٧

فأنت ترى التناسب فى الطول بين الجملتين الأولى والثانية ، ثم بين الثالثة والرابعة .

ويجئ التفويف فى الجمل القصيرة كقول ابن زيدون :

تِـه احتملْ واحتكِم اصبر وعزّ أهن
ودلِ اخضَع وقل واسمعْ ومر أطع

وقال ديك الجن :

احلُ وامرُر وضُر وانفع ولِـن واخـ
ـشن ورش وابر وانتدب للمعالى

رش : أصلح . أبر : فعل أمر من : برى السهم : نحته .

ولا يخلو هذا النوع من التكلف .

ومن رداءة نظمه هذا التفكك الظاهر ، فهو بعيد عن بلاغة النظم العربى . وما دفع قائله إلا رغبته فى أن يعد فى سلك المبدعين ولكن جاء أمله بخلاف ما قدَّر ، فما البيت إلا كلمات مسرودة لا تلاؤم بينها ولا توافق وهذا مع الإسراف فى إلقاء الأوامر الكثيرة على الممدوح . وهو لا يتفق مع المقام .

الإرصاد أو التسهيم

الإرصاد في اللغة مصدر الفعل : أرصد . تقول : أرصدت له ، وأرصدته بمعنى ترقبته وأعددته . ومنه : الرَّصد وهم القوم الذين يرصدون كالحرس . وتقول : أرصدتُ السلاح للحرب إذا أعددته .

ومنه قوله تعالى : " إن ربك لبالمرصاد " (١) وقوله تعالى على لسان الجن: " وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شِهابا رصَدَا" (٢) والإرصاد أو التسهيم بمعنى واحد عند جمهور البلاغيين ، وسماه قدامة ، وابن الأثير " التوشيح "(٣)

وعرفه الخطيب بقوله : " أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروى " (٤)

ومن أمثلته في الكتاب العزيز " وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " (٥) وذلك أنه إذا نفى الظلم عن الله تعالى فإنه يفاد أن هؤلاء هم الظالمون ، ودليل ذلك أن فواصل السورة على حرف النون أو الميم قبلها حرف مد ، فعرفت الفاصلة (٦)

ومنه قوله تعالى : "وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون"(٧)

---

١ – سورة الفجر : ١٤
٢ – سورة الجن : ٩
٣ – البلاغة العربية في ثوبها الجديد : ٨١
٤ – الإيضاح : ٤ / ٢١
٥ – سورة العنكبوت : ٤٠
٦ – ألوان من البديع : ٥٠
٧ – سورة يونس : ١٠

قولـه (فاختلفوا) إرصـاد يدل علـى أن العجز من هذه المـادة .
وقال الشاعر :

إذا لم تستطع شيئا فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

وقال زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا أبالك يسأم

قولـه : (سئمت) إ رصـاد وهو يدل علـى أن القافية من مـادة (السأم) ودلالة الإرصاد فيه معنوية .

ومن أمثلته قولـه تعالى : " إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين " ([1]) فإن معنى اصطفاء المذكورين يعلم منه الفاصلة ، إذ المذكورون صنف من بعض أنواع العالمين .

وقولـه تعالى : " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون " ([2]) فإن من كان حافظا لهذه السورة متفطنا إلى مقاطع آ يها النون المردفة ، وسمع فى صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة تكون مظلمين ([3]) **فالدلالة معنوية .**

وتروى لنا الأخبار أن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - كان يكتب ما يملى عليه رسول الله - ﷺ - فأملى عليه الآيات التالية : " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه

---

[1] – سورة آل عمران : ٣٢

[2] – سورة يس : ٣٧

[3] – بديع القرآن : ٩٠ ، ٩١

خلقا آخر " (1) ، وهنا نهض صحابى آخر هو معاذ بن جبل - رضى الله عنه - فقال : (فتبارك الله أحسن الخالقين) فضحك الرسول - ﷺ - ؛ فقال له معاذ : مم ضحكت يارسول الله ؟ قال : " بها ختمت " (2)

وبلاغة الإرصاد تبدو فى ترابط أجزاء الكلام فبدايته تدل على نهايته وصدره يدل على عجزه ومن ثم يكون الترابط والتآخى بين أجزائه فعباراته يدل بعضها على بعض ، ولذا فإن خير أبيات الشعر ما دل على قافيته . يقول ابن نباته :

خذها إذا أنشدت فى القوم من طرب
صدورها عرفت منها قوافيها(3)

---

1 – سورة المؤمنون : ١٢ ــ ١٤
2 – البلاغة العربية فى ثوبها الجديد : ٨٣
3 – الصناعتين : ٣٠٢

المشاكلة

المشاكلة فى اللغة : الموافقة والمشابهة .

وفى اصطلاح البلاغيين : هى ذكر الشئ بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديرًا . فهى قسمان : تحقيقية ، وتقديرية ، وإليك البيان .

أولاً : المشاكلة التحقيقية : وهى ما كان اللفظ المشاكل به موجودا ومن أمثلتها قوله تعالى : " وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون " ([1]) فقوله سبحانه "الله يستهزئ بهم" معناه أنه يجازيهم على استهزائهم ، فعبر عن الجزاء على الذنب بالاستهزاء لوقوعه فى صحبة اللفظ الأول " إنما نحن مستهزئون " والذى هو الذنب على الحقيقة . والعرب تسمى الجزاء على الفعل باسمه ، وعلى هذا قوله تعالى : " وجزاء سيئةٍ سيئةٍ مثلها" ([2])

وقوله سبحانه : " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " ([3]) فسمى الاقتصاص أو أخذ الحق من المعتدى اعتداء على سبيل المشاكلة التحقيقية .

ومثله قوله تعالى فى المنافقين : " الذين يلمزون المطوعين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم" ([4]) فالله سبحانه وتعالى يخبر عن مجازاته ومعاقبته للمنافقين بلفظ

---

[1] – سورة البقرة : ١٤ ، ١٥

[2] – سورة الشورى : ٤٠

[3] – سورة البقرة ١٩٤

[4] – سورة التوبة : ٧٩

"سخر" وذلك مشاكلة لما فعلوه من السخرية بهؤلاء المؤمنين ...

وقال الله تعالى :" وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلتُه فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب" ([1])

المراد بالنفس فى قوله تعالى " ما نفسك " الذات العلية . وأطلق عليها النفس لوقوعها فى صحبة " نفسى " التى أريد بها عيسى - عليه السلام .

ومن المشاكلة ما جاء فى قوله تعالى : " قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون . فألقى السحرة ساجدين " ([2]) المشاكلة قوله تعالى : " فألقى " .

يقول الزمخشرى : (وإنما عبر عن الخرور بالإلقاء لأنه ذكر مع الإلقاءات ؛ فسلك به طريق المشاكلة . وفيه أيضا مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا ان رمْوا ، فطرحوا طرحا " ([3])

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

عبر عن المجازاة بلفظ " فنجهل " لوقوعه فى صحبة لفظ " لا يجهلن أحد " .

---

[1] – سورة المائدة : ١١٦

[2] – سورة الشعراء : ٤٣ ــ ٤٦

[3] – الكشاف : ٣ / ١١٣

ومنه قول أبى الرقعمق :

إخواننا قصدوا الصَّبوح بسُحرة
فـأتى رسـولـُهم إلىَّ خصوصا

قالوا : اقترح شيئـا نـُجـد طبخـه
قلت : اطبخوا لى جبة وقميصا

فالشاعر لا يشتهى الطعام بل يريد كسوة يستتر بها جسمه من البرد القارس ، فأتى بلفظ مشاكل من جنس ما اقترحوا عليه ، فقال : " اطبخوا " فإنه أراد : خيطوا ، فذكر خياطة الجبة والقميص بلفظ الطبخ ، لوقوعها فى صحبة طبخ الطعام ([1])

ويقول ابن حجة الحموى فى بديعيته :

من اعتدى فبعدوانٍ يشاكلهُ لحكمة هو فيها خيرُ مُنتقمِ

أى : من اعتدى من الكفار فالنبى - ﷺ - يعاقبه ، وذلك لحكمة وهى أن يكون الإسلام قويـًا عزيزًا ، مرهوب الجانب ولطالما عفا - ﷺ - عن مسيئهم بل وأحسن إليه . والبيت يشير أيضا إلى قولـهِ تعالى : " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " ومعلوم أنه عبر عن العقوبة والمجازاة للمعتدى بالإعتداء عليه . فالمشاكلة فى قوله : " فاعتدوا " .

ونعود إلى الإعجاز البيانى فى المشاكلة ؛ فمن أمثلتها قولـه تعالى : "إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم"([2]) يقال : خدعه : أنزل به المكروه من حيث لا يعلم . فجعل مجازاة المنافقين على خداعهم خداعا على سبيل المشاكله.

وعلى هذا قولـه تعالى : " ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين "([3]) اسند المكر الأول إلى اليهود الذين وُكِلوا بقتل

---

١ – معاهد التنصيص : ٢ / ٥٥٢

٢ – سورة النساء : ١٤٢

٣ – سورة آل عمران : ٥٤

عيسى - عليه السلام - غيلة . وقد عبر عن مجازاتهم بالمكر من حيث أنه فى الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يمكن إسناده إليه - سبحانه - إلا بطريق المشاكلة ([1]) وهى توحى بالمبالغة فى ترويعهم وتعنيفهم . وعلى هذا قوله تعالى : " ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين"([2])
وقال رسول الله - ﷺ - : " إن الله لا يملّ حتى تملّوا " ([3])
المعنى: إن الله - تعالى - لا يقطع مدده وثوابه عن عباده حتى يملوا عبادته ومسألته . فعبر عن ذلك بقوله : "تملوا" ؛ ليشاكل ملل عباده .

وقال بعض العراقيين فى قاض شُهد عنده برؤية هلال الفطر ؛ فلم يقبل شهادته :

أترى القاضى أعمى ... أم تراه يتعامى
سرق العيد كان الـ ... ـعيد أموال اليتامى

فقد جعل العيد مسروقا ، وذلك لوقوعه فى صحبة أموال اليتامى.

ثانيًا : المشاكلة التقديرية :

ومن أمثلتها قوله تعالى : " صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون" ([4]) والمعنى : تطهير الله ، لأن الإيمان يطهر النفوس .
والأصل فيه : أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه : المعمودية ، ويقولون : هو تطهير لهم . فأمر المسلمون بأن يقولوا : قولوا آمنا بالله ، وصبغنا الله بالإيمان

---
[1] – تفسير أبى السعود : ٢ /٤٢
[2] – سورة الأنفال : ٣٠
[3] – صحيح ابن حبان : ٢ / ٦٨ ، المعجم الأوسط : ٤ / ١٠٧
[4] – سورة البقرة : ١٣٨

صبغة ، لا مثل صبغتنا وطهرنا به تطهيرا لا مثل تطهيرنا ، أو يقول المسلمون : صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم يصبغ صبغتكم.وجئ بلفظ الصبغة للمشاكلة وإن لم يكن قد تقدم لفظ الصبغ لأن قرينة الحال التى هى سبب النزول من غمس النصارى أولادهم فى الماء الأصفر دلت على ذلك ([1]) فالقرينة هنا معنوية . ومن أمثلتها قوله تعالى قولـه تعالى : "إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها"([2])

قال الزمخشرى : ويجوز أن تقع هذه العبارة فى كلام الكفرة ، فقالوا : أما يستحى ربّ محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ، فجاءت الآية الكريمة على سبيل المقابلة - يريد المشاكلة - وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بديع ، وطراز عجيب ([3]) فالقرينة معنوية ، إذ ليس فى الآية ما يدل على حكاية قول الكفار .

ومن الأمثلة قول أبى تمام :

من مبلغ أفناء يعرب أنىِّ بنيت الجار قبل المنزل

ومن الأمثلة أن ترى إنسانا يغرس شجرا ؛ فتقول لآخر : أغرس إلى الكرام . وتريد : اصنع المعروف إلى الكرام . فعبر عن صنعه بالغرس ؛ لمصاحبته للغرس المشاهد أمامه. فالغرس لم يذكر فى الكلام . والمعنى كأنك قلت له : هذا يغرس الأشجار فاغرس أنت المعروف مثله ([4])

تبين مما سبق أن المشاكلة تكون بالشئ الثانى الذى ورد مشاكلا للأول فى بنيته وهيئته .

---

[1] – الإيضاح : ٤ / ٢٤

[2] – سورة البقرة : ٢٦

[3] – الكشاف : ١ / ٢٦٣

[4] – مواهب الفتاح : ٤ / ٣١٣ ضمن (شروح التلخيص)

وقد يراد بالشئ الأول المشاكلة ؛ ومن ذلك ما جاء فى قولـه تعالى :" وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به " (١) عوقبتم : أى اوذيتم ابتداءً . ومعلومٌ أن العقاب معناه : المجازاة على أذىً سابق .

فالتعبير عن هذا الأذى الذى وقع ابتداءً بالعقاب يكون من المجاز المرسل ، أو المشاكلة .

يقول أبو السعود : " (بمثل ما عوقبتم به) أى بمثل ما فُعل بكم وقد عُبر عنه بالعقاب على طريقة إطلاق الاسم المسبب على السبب كما فى : " كما تدين تُدان " (٢) أو على نهج المشاكلة " (٣)

ويصح حمل " عوقبتم " على الحقيقة وذلك بتأويل : أن المشركين كانوا يقصدون بإ يذاء المسلمين الأولين عقوبتهم على ترك الشرك ، واتباع الإسلام .

وأما قولـه : " وإن عاقبتم " فهو مجاز مرسل علاقته : المسببية ؛ إذ المعنى : وإن أردتم عقاب المشركين ؛ فعُبر عن السبب وهوالإرادة بالمسبب وهو العقاب .

* * *

وللمشاكلة صلة وثيقة بكل من المجاز المرسل والاستعارة ، وكذلك الجناس والطباق .

١ - فالمشاكلة تتلاقى مع المجاز المرسل والجناس . ففى قولـه تعالى : "وجزاء سيئة سيئة مثلها" التعبير بلفظ"سيئة"

---

١ – سورة النحل : ١٢٦

٢ – مجمع الأمثال : ٢ / ٤٣ . ومعنى المثل : كما تفعل تُجازى. فالمجاز فى لفظ " تدين " بتسمية السبب باسم المسبب . وأما المشاكلة ففى لفظ " تدان " مرادٌ به الجزاء

٣ – تفسير أبى السعود : ٥ / ١٥٢

الثانى بمعنى العقاب والجزاء من المجاز المرسل بعلاقة السببية ، وهذا اللفظ نفسه مشاكل للفظ " سيئة " الأول وقد اتحد اللفظان فى الصورة ، واختلفا فى المعنى فهذا من الجناس التام. وفى هذا الأسلوب ما يؤدى إلى التنفير من فعل السيئة حيث إن الجزاء عليها سيكون شديدا ، لا تقل شدته عن الأثر السيئ الذى يترتب على اقتراف المعاصى والسيئات ([1])

ومثله قولـه تعالى : " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " اللفظ المشاكل به "فاعتدوا عليه" .

٢ ـ وصاحبت المشاكلةُ الاستعارة فى قول أبى الرقعمق السابق :

" قلت " اطبخوا لى " فيرى السبكى أنه من الاستعارة ، لمشابهة الطبخ للخياطة ، والإطعام للكسوة فى النفع به ([2])

٣ ـ وتصاحب المشاكلة الطباق ، ومثال ذلك أن رجلا شهد عند شريح القاضى فقال له : إنك لسبط الشهادة . فقال الرجل: إنها لم تُجعَّد عنى فالذى سوغ تجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ، ولولا سبوطة الشهادة لامتنع تجعيدها ([3]) والسبوطة ضد التجعيد .

بلاغة المشاكلة : تفيد المشاكلة فى الأسلوب حسنا ومزية نفتقدها إذا ما ذكر اللفظ الحقيقى للمعنى المعبَّر عنه ، ففى قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

---

١ – البديع فى ضوء أساليب القرآن : ٧٦ بتصرف

٢ – عروس الأفراح : ٤ / ٣١١ ، ضمن (شروح التلخيص)

٣ – الإيضاح : ٤ / ٢٣ باختصار

نجد أن فى التعبير بلفظ الجهل مكان العقوبة ، والمجازاة إفادة لشدة التحذير وقوة الردع والرجز ، ولو قال عمرو : فنرد عليه أو فنجازيه على جهله ...لما أفاد تلك الإفادة التى أفادتها المشاكلة ([1])

وفى المشاكلة حث على التأمل فى النص الأدبى بغية المعنى المراد . وهو معنى له أهمية ، فهو معنى يناسب الحال والمقام .

وللمشاكلة أهمية بالغة فى دراسات القرآن الكريم والحديث الشريف فالقرآن حافل بنصوص المشاكلة ؛ فقد وصفت الذات العلية بصفات يوهم ظاهرها غير المراد بها ، ومنها :الإستهزاء والخداع والمكر والسخرية والنسيان كما عُبر عن الذات العلية بلفظ " النفس " .

ولكن حين يعلم أن هذه الألفاظ وردت فى النص القرآنى مشاكلة لما قبلها ، وأن أكثرها جاء هكذا جزاءً وفاقا لما ارتكبه هؤلاء الماكرون من الإثم . وإن هذا التعبير جار فى كلام العرب ، وأن الكتاب العزيز جاء على نهج كلامهم ؛ فقد قال شاعرهم :

وننكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول

حين يعلم ذلك تدرك معانى هذه النصوص ، ويكون فى هذا رد على المشككين ، والمتأولين فى كتاب الله ـ تعالى ـ بغير علم .

وفى المشاكلة رد على الحمقى ، وقصارى النظر والتفكير فى تأويل القرآن الكريم والحديث الشريف .

---

[1] – علم البديع . دراسة تاريخية وفنية : ١٩٤

المزاوجه

قال صاحب اللسان : " ازدوج الكلام ، وتزاوج : أشبه بعضه بعضا فى السجع أو الوزن . أو كان لإحدى القضيتين تعلق بالأخرى " ([1])

وفى اصطلاح البلاغيين هى : أن يزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء - ومعنى ذلك أن يرتب على كل من معنى الشرط والجزاء معنى آخر ، ومثاله قول البحترى :

إذا مـا نهَـى النّـاهـى فلجَّ بـى الهـوى
أصاخـتْ إلى الـواشـِـى فلـَّج بها الهجـر

معنى : لج : ألح عليه ، وأصاخت : استمعت ، الواشى : النمام .

رتب الشاعر على الشرط وهو " نهى الناهى " لجاج الهوى به ، وعلى الجزاء وهو : إصاختها إلى الواشى لجاجها فى الهجر . وفى ترتيب معنى على الشرط ، ثم فى ترتيبه أيضا على الجزاء نوع مبالغة .

يقول ابن يعقوب : " ولا يخفى ما فى ترتيب لجاج الهوى على النّهى من المبالغة فى الحب ؛ لاقتضائها أن ذكرها ولو على وجه العتب يزيد حبها ويثيره كما قال :

أجدُ الملامة فى هواكِ لذيذةً حبّـًا لذكـركِ فليلُمنى اللوَّم

وما فى ترتيب لزوم الهجران على وشى الواشى من المبالغة فى إدعاء كون حبها على " شفا " ([2]) إذ يزيله مطلق الواشى

---

[1] - مادة : (زوج)

[2] - هو إشارة إلى قوله تعالى : " وكنتم على سفا حفرة من النار فأنقذكم منها " آل عمران ١٠٣ وفيه الإشراف على الهلاك .

؛ فكيف يكون الأمر لو سمعت أو رأت عيبا ؟ ... والمبالغتان مما يستحسن فى باب كل منهما " ([1])

وقال الشاعر :

إذا احتربتْ ففاضت دماؤها

تذكرت القُربى ففاضت دموعُها

رتب فيض الدماء على الشرط وهو الإحتراب ، ورتب على تذكر القربى وهو الجزاء فيض الدموع .

بلاغة المزاوجه :

فى المزاوجة مفاجأة السامع بغير ما يتوقع ويترقب كما فى قول البحترى السابق .

فالمخاطب عندما يسمع (لج بها) يتوقع أن يكون الذى لج بها (هوى) ، وهو ما لج بصاحبها ، حتى يتواء ما فى الحب ، ويستويا فى الصبابة ، وعندما يقف على متعلق(لج) وهو (الهجر) يعلم أنه ليس من نوع ما لجَّ بعاشقها . ومن كان لقاء المخاطب بغير ما يتوقع ([2])

---

[1] – مواهب الفتاح : ٤ / ٣١٧ ضمن (شروح التلخيص)

[2] – علم البديع : ٢٤٦ بتصرف د/ بسيونى فيود

الاستطراد

وهو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني .
ومثاله قول الحماسي :
وإنا لَقومٌ ما نرى القتل سُبة إذا ما رأتْه عامرٌ وسلول
وذلك أن الشاعرمدح قبيلته واستطرد في الشطر الثاني بذم هاتين القبيلتين .
وهذا شاعر أراد أن يعظ الناس ن فاستطرد إلى ذم قبيلة " جرْم " بقوله :
إذا ما اتـَّقى اللهَ الفتى وأطاعه
فليس به بأس وإن كان من جرْم
فمدح الفتى التقى ، ثم استطرد بذم هذه القبيلة .
وقال إسحاق الموصلي :
فما ذرَّ قرنُ الشمس حتى كأننا
من العِيِّ نحكي أحمد بن هشام
وصف نفسه وصحبه بالتعب ، واستطرد بجعل " أحمد بن هشام " أصلا في هذا التعب وهذا على سبيل التشبيه .
وقال الله تعالى : " يا بني آدم قد أنزلْنا عليكم لباسًا يواري سوآتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون " ([1])
قال الزمخشري : " هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر السواءات ، وخصف الورق عليها إظهارًا للمنة فيما خلق الله من لباس ، ولما في العري ، وكشف العورة من

[1] - الأعراف : ٢٦

المهانة والفضيحة ، وإشعارًا بأن التستر عظيم من أبواب التقوى " ([1])

ومن الاستطراد قوله تعالى : " كأن لم يغنوْا فيها ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود " ([2]) البعد : الهلاك . يخبر - سبحانه - بهلاك أهل " مدين " قوم شعيب واستطرد بذكر هلاك "ثمود" قوم صالح - عليهما السلام - فقومهما على شاكلة واحدة من عصيان من أرسل إليهم .

* * *

يقول ابن الإصبع فى " باب الاستطراد " :

ولم أظفر منه بشئ فى القرآن المجيد إلا فى موضع واحد ، وهو قوله تعالى : "ألا بُعدًا لمدين كما بعُدت ثمود" ، وموضع الاستطراد هو " كما بعُدت ثمود " ([3])

والواقع أنه قد ورد الاستطرا فى القرآن المجيد فى غير موضع ومنه قوله تعالى : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون " ([4])

يقول الزمخشرى : " فإن قلت : ما وقع الجملتين ؟ أعنى " منهم المؤمنون " و " لن يضروكم إلا أذى " قلت : هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل

---

[1] – الكشاف : ٢ / ٧٤

[2] – سورة هود : ٦٨

[3] – بديع القرآن : ٤٩

[4] – سورة آل عمران : ١١٠ ، ١١١

الكتاب كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فإن من شأنه كيت كيت ، ولذا جاء من غير عاطف " ([1])

ومن أمثلته : الاستطراد من الشخص إلى النوع ومثاله قولـه تعالى : " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين " ([2]) فاستطرد من ذكر الشخص المخلوق وهو آدم - عليه السلام - إلى النوع المخلوق من النطفة ، وهم أبناؤه ، وأوقع الضمير على الجميع بلفظ واحد؛ فقال : " ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ... " فهذا استطراد من الشخص - آدم - إلى النوع . أعنى : ذريته .

إيهام الاستطراد :

وقد يُذكر المعنى الأول ليُتوصَّل به إلى الثانى ؛ فيكون الثانى هو المراد ، ومثاله قول أبى إسحاق الصابى :

إن كنت خُـنتك فى المودة ساعةً
فذممتُ سيفَ الدولة المحمـودا
وزعمتُ أن له شريكا فى العُلى
وجحـدته فـــى فضـلهِ التوحيـدا
قسمـًا لـــو أنى حـالفٌ بغموسـها
لغـريـم ديـــنٍ ما أراد مـزيـدا

فقد ذكر الشاعر حديث خيانته ليتوصل به إلى مدح سيف الدولة .

---

[1] - الكشاف : ١ / ٤٥٥

[2] - سورة المؤمنون : ١٢ ــ ١٤

وتبدو بلاغة الاستطراد فى مفاجأة القارئ أو السامع بمعنى آخر غير المعنى المسوق له الكلام ، وذلك تنشيط للذهن بدفع الملل ولا سيما عندما يطول الكلام .
ولذا نجد فى " البيان والتبيين " للجاحظ ، و" الكامل" للمبرد كثيرا من الاستطراد ؛ فالمبرد كثيرا ما يقول : " والشئ بالشئ يذكر " ثم يستطرد فى معنى ثم يرجع إلى ما بدأ به . وكثيرا ما يقول : " رجع القول " .

* * *

العكس والتبديل

وهو أن يقدم فى الكلام جزء ثم يؤخر ، ويقع على وجوه :
١- أن يقع بين أحد طرفى جملة وما أضيفت إليه ومثاله : عادات السادات سادات العادات .

٢ - أنه يقع بين متعلقى فعلين فى جملتين ومثاله قوله تعالى : " يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى" ([١])
العكس بين : الحى والميت فى الجملتين وكلاهما متعلق بالفعل " يخرج " . وقال الحماسى :
فردَّ شعورَهن السودِ بيضا ورد وجُوههن البيض سُودا
قوله : السود بيضا مفعولا : ردَّ ، وكذا قوله : البيضا سودا مفعولا : ردَّ الثانية .
٣ - أن يقع بين لفظين فى طرفى جملتين كقوله تعالى : " هن لباس لكم وأنتم لباس لهن " ([١]) وقوله : " ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ "([٢])

---
[١] - سورة الروم : ١٩

وقال الحسن البصرى : إن من خوفك حتى تلقى الأمن خير ممن أمنك حتى تلقى الخوف .
العكس والتبديل فى الآية الأولى بين ضميرى الغائب والمتكلم فى الجملتين .

* * *

الرجوع

وهو العود على الكلام السابق بالنقض ، لنكته بلاغية ومثاله قول زهير :

قِفْ بالديار التى لم يعفُها القدم
بلَى وغيَّرها الأرواح والدِّيَمَ

قيل : لما وقف على الديار تسلطت عليه كآبة أذهلته فأخبر بما لم يتحقق ، فقال : " لم يعفها القدم " ثم ثاب عليه عقله ، فتدارك كلامه ، فقال : " بلى وغيرها الأرواح والدَّيمَ " (3) ، وقال آخر :

فأف لهذا الدهر بل لأهلهِ

جعل التضجر أولاً من الدهر ثم رجع فجعله لأهله .
والرجوع تارة يكون بلفظ : " بلى " و " بل " كما سبق أو يكون بلفظ " استغفر الله " كما فى قول الشاعر :

تنزَّه طرفِى فى تعابيركِ الغرَّ
وجال بها فكرى من السَّطر للسطر

---

1 – سورة البقرة : ١٨٧
2 – سورة الأنعام : ٥٢
3 – الإيضاح : ٤/ ٢٩

فمـــا خلتـُها إلا حـدائـق بهجـــــة
مكلـّلة الأرجــــاء بالزّهر والزّهر
ولكنهـا أستغفـر الله نسخــــــة
مـزينــةَ الأرقـــام بالـدِّر والـتِّبـر

ومن أمثلته قول حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا   بل لا يوافق شعرهم شعرى

ففى الشطر الأول ذكر أنه لا يسرق من الشعراء . ثم رجع فذكر أنه وإن تأثر بهم فإن شعره لا يوافق شعرهم . يريد أصالة شعره وقوته .

ومن أمثلته ما جاء فى قولـه تعالى : " فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين " [1]

قول شعيب ـ عليه السلام ـ : " فكيف آسى" من الرجوع ؛إنه إذا كان قولـه " قد أبلغتكم " تأسفا ، ينافى ما بعده . فكأنه رجع عن التأسف ، منكرًا لفعله الأول بقولـه :" فكيف آسى"

وسره البلاغى : الاشعار بالذهول وشدة الحيرة ، لعظم الأمر ، فصار بحيث لا يفرق بين ما هو كالمتناقض من الكلام وغيره . [2]

---

[1] – سورة الأعراف : ٩٣
[2] – حاشية الشهاب الخفاجى : ٤ / ١٩٣ بتصرف

التوريه

وهى مصدر الفعل " ورَّى " وفى التورية معنى الستر والإخفاء وتسمى أيضًا : الإيهام ، لأن فيها خفاء المراد ، وإيهام خلافه .

والتورية فى الاصطلاح : أن يطلق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد اعتمادًا على قرينة خفية ([1])
المعنى البعيد : هو المراد ، وورى عنه بالمعنى القريب ، وبذلك يتضح معنى الإيهام . وذلك أن السامع يتوهم بادئ الأمر أن المتكلم يريد المعنى القريب فإذا دقق النظر عرف أن المراد خلافه .

والتوريه تتكون من ثلاثة عناصر ([2]) :
الأول : لفظ له معنيان .
الثانى : معنى قريب ، ويسمى : " المورَّى به " .
الثالث : معنى بعيد ، ويسمى : " المورَّى " .
ويتضح هذا فى قوله تعالى : " الرحمن على العرش استوى " فإن لفظ " استوى " له معنيان : معنى قريب غير مراد وهو : الاستقرار الحسى على سرير أو كرسى ونحو ذلك ، ومعنى بعيد مراد وهو : الاستيلاء ، والملك، فالمعنى القريب ستر المعنى البعيد وأخفاه .

والمقصود بالقرب والبعد هنا : هو سرعة حصول المعنى فى الذهن عند سماع اللفظ ، أو حصوله ، فالقريب يكون أسرع إلى الذهن ترددًا أو حصولا من المعنى البعيد .

---

١ – انظر : ألوان البديع : ٩٦ ، الإيضاح : ٤ / ٢٩
٢ – الفنون البديعية فى دائرة البحث البلاغى : ١٥٧

ولابد فى التوريه من تفاوت المعنيين فى القرب والبعد . فإن تساويا فيهما فلا تورية مثل كلمة " جَوْن " فإن لها معنيين : أبيض وأسود . إلا أنهما متساويان فى القرب والبعد ما لم تدل قرينة على المراد ، ولذا فإن هذه الكلمة لا تورية فيها ؛ لعدم تفاوت المعنيين " .

واشترط فى التعريف الاعتماد على **قرينة خفية** وهى تكون لفظية .

وقد تكون عقلية تفاد من الحال والمقام وهى : استحالة الاستواء بمعناه القريب فى حق الله تعالى كما فى الآية السابقة . ومن أمثلتها قول أبى بكر - رضى الله عنه - وهو فى طريق الهجرة ، وقد سئل النبى - ﷺ - من هذا ؟ فقال : " هادٍ يهدينى " .

فقوله : " هادٍ " له معنى قريب غير مراد وهو: الدليل الذى يدله على الطريق ، ومعنى بعيد مراد وهو : الهادى الذى يهديه إلى الإسلام ، والمراد الثانى .

وقال المتنبى :

برغم شبيبٍ فارق السيفَ كفُّه
وكانا على العِلات مصطحبان([1])

كأن رقاب الناس قالت لسيفه
رفيقُك قيسىٌّ وأنت يمانى

يريد أن كف شبيب وسيفه متنافران ؛ فلا يجتمعان ؛ لأن شبيبًا كان قيسيًا . والسيف يقال له يمانى . فورَّى به عن

---

[1] – المراد بشبيب : شبيب بن جرير العقيلى . وكان خرج على كافور وحاصر دمشق ، وقتل فى حصارها ، وشبيب أصله من قيس وقيس من عدنان واليمن من قحطان . وكانت بين القبيلتين حروب كثيرة

الرجل المنسوب إلى يمن . ومعلوم ما بين قيس ويمن من التنافر ([1])
والمعنى : أن شبيبًا لما قتل ، وفارق السيفُ كفه كأن الناس أوقعت بينهما ، فقالوا للسيف : أنت يمانى وصاحبك قيسى ، فلذا جانبه السيف لما بين القبيلتين من العداوات .

وتنقسم التوريه إلى :

١ـ تورية مجردة .　　　　٢ ـ توريه مرشحه .

أولا : التورية المجردة :

وهى التى لا تجامع شيئا مما يلائم المعنى القريب . أعنى (المورَّى به) فلها ثلاث صور :

١ ـ أن تجرد مما يلائم كلا من المعنى القريب ، والبعيد ، ومثالها قول النبى ـ ﷺ ـ عند خروجه إلى بدر وقد قيل له : ممن أنتم ؟ فقال : من ماء . فلفظ ماء " توريه " ومعناه القريب : اسم بطن من بطون العرب ، ومعناه البعيد : أنهم مخلوقون من ماء . وهذا المعنى هو المراد . ولم يذكر شئ يلائم أحد المعنيين ، ومثاله قول أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ السابق : " هادٍ يهدينى " .

ومن ذلك قول القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر يصف واديا ([2]) :

وبطحـاءُ مـن وادٍ يروقُـك حُسـنُهُ
ولا سيمـا إن جـاء غـيثٌ مبكـر
به الفضلُ يبـدو والـربيـعُ وكـم غـدا
به العيشُ يحيى وهو لا شك جعْفـر

[1] – خزانة الأدب وغاية الأرب : ٢ / ٤١
[2] – انظر : خزانة الأدب وغاية الأرب : ٢ / ٢٤٥

الفضل ، والربيع ، ويحيى ، وجعفر من كبار البرامكة فى العصر العباسى . هذا هو المعنى القريب . أما المعنى البعيد المورَّى عنه فقد عنى الشاعر بالفضل : الزيادة ، وبالربيع : أحد فصول السنة ، وبقوله يحيى : يعيش ، وجعفر : نهر كبير . والتورية مجردة لأنه لم يذكر ما يلائم أحد المعنيين .

٢ - أن تجرد مما يلائم المعنى القريب ، وتقترن بما يلائم المعنى البعيد كما فى قول عمر بن أبى ربيعة فى"القَتُول"([1])

أيها المنكح الثـُّريا سُهيلا عَمْرك اللهُ كيف يلتقيانِ
هى شامية إذا ما استقلَّت وسهيلٌ إذا استقل يمانِ

التورية فى لفظى : " الثريا " و " سهيل " الكوكبان المشهوران والشاعر ورَّى بهما عن الزوجين : " الثريا بنت علىّ " و " سهيل ابن عبدالرحمن " وهو يوهم أن الشاعر يريد : النجمين المشهورين . وذلك أن " الثريا " من منازل القمر الشامية ، وسهيلا من النجوم اليمانية ، ولكن الشاعر يريد صاحبته " الثريا " وقد كان زوَّجها أبوها من " سهيل " السابق .

فالشاعر ورَّى بهذين النجمين عن الشخصين ليستطيع بالتورية الإنكار متى أراد .

وجعل بدر الدين بن مالك ([1]) هذه التورية مرشحة ، لأن كلا من " الثريا " و " سهيل " رشح صاحبه فقوى بهذا لفظ كل منهما .

---

[1] – انظر تحرير التحبير : ٢٦٨ ، والصور البديعية فى كتاب الكامل لمحمد بن يزيد المُبرِّد : ٣٢ . " الثريا " من الكواكب ... سميت بذلك لكثرة كواكبها مع صغر مرآتها ، فكأنها كثيرة العدد بالإضافة إلى ضيق المحل ، لا يتكلم به إلا مصغرا ، وهو تصغير على جهة " التكبير" . اللسان : (ثرا) .

وقال بهذا السيوطى فى كتابه : " عقود الجمان فى المعانى والبيان " .

ومن أمثلته قول عماد الدين :

أرى العِقد فى ثغْرهِ مُحكما   يرينا الصِّحاح من الجوهر

الصحاح : معناها القريب : كتاب الصحاح للجوهرى .

والمراد المعنى البعيد : أسنان محبوبته . وقد قرنت بما يلائم المعنى البعيد وهو قوله : " فى ثغره " (٢)

٣ ـ أن يجامع التورية شئ يلائم المعنى القريب ، وشئ آخر يلائم المعنى البعيد ، فيتعارض الشيئان ، فيتساقطان ، ويبقى المثال بعد وكأنه خال منهما .

ومثاله قول الشاعر :

ومولعُ بفخاخٍ   يمدّهـا وشباك

قالت لى العين : ماذا   يصيد ؟ قلت : كَراكِى

التوريه فى لفظ "كراكى" . فمعناه القريب جمع "كُركى" وهو طائر رمادى اللون يأوى إلى الماء . والمعنى المراد : النوم وقوله : "يصيد" يلائم القريب ، و "العين" تلائم المعنى البعيد (٣)

ومن أمثلة التوريه عند أبى الإصبع (٤) قوله تعالى : "قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم" يقول : "فانظر إلى كون الضلال ههنا يحتمل الحب ، وضد الهدى" . وكيف استعمله أولاد يعقوب ـ عليه السلام ـ ضد الهدى ؛ فورّوا به الحب ، ليعلم أن المراد : ما أهملوا لا ما استعملوا .

---

١ – المصباح :١١٥

٢ – الإيضاح : ٤ / ٣١

٣ – الإيضاح : ٤ / ٣١ ، وألوان من البديع : ٩٩

٤ – بديع القرآن : ١٠٢ ، ١٠٣

ويقول في قولـه سبحانه وتعالى : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " ([1]) أى خيارا . وظاهر اللفظ يوهم التوسط مع ما يعضده من توسط قبلة المسلمين صدق على لفظ "وسط" ها هنا أن يسمى الله - تعالى - به ، لاحتمالها المعنيين .

ولما كان المراد - والله أعلم - أحد المعنيين الذى هو الخيار دون الآخر صلحت أن تكون من أمثلة هذا الباب . والله أعلم.

والمثالان من التوريه المجردة حيث لم يذكر ما يلائم أحد المعنيين .

ثانيا : التورية المرشحة :

وهى التى قرنت بما يلائم المعنى القريب - وهو المورَّى به . وهو إما أن يذكر قبل التورية أوبعدها . فمثال الأول قول الحماسّى :

فلما نأتْ عنا العشيرةُ كلها
أنخْنا فحالفنا السيوفَ على الدَّهر
فلما أسلمتْنَا عند يومٍ كريهةٌ
ولا نحن أغضيْنا الجفُون على وتْرِ

كلمة " الجفون " معناها القريب " جفون العين . ولفظ " أغضينا " ترشيح له ؛ لأنه يناسب الجفون . ولكن الشاعر أراد المعنى البعيد ، وهو جفن السيف . وذلك أن "السيف إذا أغمد انطبق الجفن عليه وإذا جرَّد انفتح للخلاء الذى بين الدفتين" ([2])

ومن ذلك قول الشاعر :

حملناهم طرّا على الدّهم بعدما
خلعنا عليهم بالطعّان ملابسًا

---

[1] - سورة البقرة : ١٤٣

[2] - الإيضاح : ٤ / ٣٠

الدّ ُهم : جمع أدهم ، وهو الفرس الأسود . ولكن الشاعر أراد: المعنى البعيد وهو : القيد الحديد .

ومثله قول الآخر :

وقالوا : تدَّرع للشجاعةِ والوغى
فقلت : دعُونى آكل الخبز بالجُبن

للفظ " الجبن " معنيان . الأول قريب غير مراد ، وهو الجبن المستخرج من اللبن . والثانى بعيد مراد ، وهو ضد الشجاعة . وقولـه "آكل الخبز" ترشيح لأنه يناسب المعنى الأول .

ومثال الثانى قول الشاعر :

كـأن كانُـــون أهـدَى مـن مــلابسهِ
لشهـر تمّـُوز أنواعـا مـن الحُـــلل

أو الغزالةُ من طول ِ المدى خَرفتْ
فمـا تفـرقُ بيـن الجـــدْى والحمَـل

لفظ : الغزالة له معنيان . قريب غير مراد وهو الحيوان ، وبعيد مراد وهو : الشمس . وقولـه : "الجدى والحمل" ترشيح ؛ لأنه يلائم المعنى القريب : "الغزالة" ، إذ الجدى : أنثى المعز ، و "الحمل" ولد الضأن .

والشاعر أراد المعنى البعيد : الشمس ؛ فالترشيح جاء بعد التورية .

وقال بدر الدين الذّهبى :

يا عاذلى فيه قلْ لى إذا بدا كيف أسلُو
يمر بى كـــل وقتٍ وكلمـــا مـرَّ يحلُو

التورية فى لفظ "مرّ" وذلك أن معناها القريب هو : المرارة ، والمعنى البعيد هو : المرور بالسير . وقولـه : " يحلو " يلائم المعنى القريب وهو مذكور بعد التورية .

وبين: " مرَّ " و" يحلو " طباق إيجاب زاد من حسن التورية .

الفرق بين التورية المرشحة والاستعارة المرشحة ([1]) :
الاستعارة باعتبار الخارج ثلاثة : مطلقة ، ومجردة ، ومرشحة .

١- فالمطلقة : هى التى لم تقترن بصفة معنوية ولا تفريع كلام ، كما فى قوله تعالى : "الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" ([2]) أى : من الكفر إلى الإسلام .
٢ - والمجردة : وهى التى قرنت بما يلائم المستعار له كقول كُثير :

غمْر الرِّداء تبسم ضاحكا غلقتْ لضحكته رقابُ المال

استعار الرداء للمعروف ، لأنه يصون عرض صاحبه كما يصون الرداء ما يلقى عليه ووصفه بالغمر الذى هو وصف المعرف " المستعار له" .

٣ - والمرشحة : وهى التى قرنت بما يلائم المستعار منه كقوله تعالى : "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم"([3]) استعير الاشتراء للاختيار وقوله تعالى : "فما ربحت تجارتهم" يلائم المستعار منه .

فالترشيح وصف بين الاستعارة والتورية . **فما وجه الفرق بينهما؟**

---

[1] – انظر الإيضاح : ٣ / ١٤٠
[2] – سورة البقرة : ٢٥٧
[3] – سورة البقرة : ١٦

يقول بهاء الدين السُّبكى ([1]) :
"والفرق بين الاستعارة والتورية المرشحة هو أن مع الاستعارة قرينة تصرف اللفظ لها ، وتجعل المعنى البعيد قريبا ، والتورية ليست كذلك . والغالب عليها الترشيح بما يبعد إرادة المجاز ، ولذلك سميت : تورية وإيهاما" .

بلاغة التورية :

فى التورية خفاء والملتقى يحتاج فى إدراكها إلى فضل تأمل وطول نظر ، بغية الاهتداء إلى المعنى المراد . فإذا ظفر به ثبت هذا المعنى وتأكد .

وفى التورية إيهام وتفنن فى الكلام ، ومهارة فى تصريف الأفعال من أجل الدلالة على المعانى . أنظر إلى قول أبى الحسين الجزاز :

كيف لا أشكر الجزارة ما عشْـ
ـتُ حِفاظا وأرفضُ الآدابا

وبها صارتِ الكلابُ ترجينى
وبالشعر كنت أرجو الكلابا

التورية لفظ " الكلابا " . فالمعنى القريب : الحيوان المعروف ، والمعنى البعيد : أصحاب السلطة والنفوذ الذين عناهم الشاعر ، حيث لم ينل منهم ما كان يؤمل من خير أو سلطان وجاه .

[1] – عروس الأفراح : ٤ / ٣٢٥ ضمن (شروح التلخيص)

التوجيه

وهو : إيراد المعنى محتملا لوجهين مختلفين ([1]) . أى لمعنيين متضادين كالمدح والذم .
والفرق بينه وبين التوريه : أن احتمال المعنيين فى التوجيه على السواء . أما فى التوريه فإن أحدهما قريب غير مراد ، والآخر بعيد وهو المراد بقرينة .
ومن أمثلة التوجيه قوله تعالى : "من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين" ([2])
يقول "الزمخشرى" : (غير مسمع) حال من المخاطب - أى الرسول - ﷺ - أى استمع وأنت غير مسمع .
وهو قول ذو وجهين : يحتمل الذم . أى اسمع مدعوًّا عليك بلا سمعت ؛ لأنه لو أجبت دعوتهم عليه لم يسمع ؛ فكان أصم غيرمُسمَع . قالوا ذلك اتكالا على أن قولهم : لا سمعت - دعوة مستجابة ، أو اسمع غير مجاب ما تدعو إليه ، ومعناه غير مُسمع جوابا يوافقك ؛ فكأنك لم تسمع شيئا ، أو أسمع غير مُسمع كلاما ترضاه ؛ فسمعك ناب عنه ...
ويحتمل المدح : أى اسمع غير مُسمَع مكروها من قولك : أسمع فلانـًا - إذا سبَّه" ([3]) غير أن المعنى الأول هو المناسب لحال هؤلاء اللئام وبقرينة سياق الآية بعد .
وقال رسول الله - ﷺ - : "من ُجعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين " ([1]) قوله : "فقد ذبح بغير سكين" يحتمل المدح .

---

[1] – الإيضاح : ٤ / ٦٤
[2] – سورة النساء : ٤٦
[3] – الكشاف : ١ / ٤٠٠

والمعنى أن القاضي من كثرة ما يجد ويتعب في عمله أملا في إنصاف أصحاب الحقوق يتعب كتعب من ذبح بغيرسكين. ويحتمل الذم ؛ لأنه لا يقدر على إنصاف أصحاب الحقوق ، فيتسبب منه ألم شديد ؛ فيكون حاله حال من ذبح بغير سكين .

ومن أمثلته ما حكى أن بعض الشعراء هنا الحسن بن سهيل بصهر المأمون مع من هنأه ، فأثاب الناس كلَّهم ، وحرمه ؛ فكتب إليه : إن أنت تماديت على حرماني عملت فيك بيتا ، لا يعلم أحد أمدحتك فيه أم هجوتك ؟ فاستحضره ، وسأله عن قوله ؛ فاعترف فقال : لا أعطيك تفعل ؛ فقال :

بارك الله للحسَنْ ولبُوران في الختَنْ
يا إمام الهدى ظِفرْ تَ ببنت من ؟

فلم يعلم أحد أراد بقوله : "ببنت من" ؟ في الرفعة أوفى الضِّعة . فاستحسن الحسن منه ذلك .

وقال بشار في خياط أعور يسمى عْمرا :

خاط لي عمرُو قباء ليت عينيه سواء
فأسأل الناس جميعا أمديح أم هجاء

قوله : "ليت عينيه سواءً" : يحتمل الدعاء لهذا الخياط ، أو الدعاء عليه بمعنى أن العين السقيمة تصير مثل الصحيحة ، أو العكس ؟

وقيل : رفع غلامان إلى بعض الولاة ، فاستحسن سمْتها ، فسأل عن نسبهما فقال أحدهما :

أنا ابن من ذلَّت الرقابُ له مِن بين مخزومها وهاشمها
تأتيه طوعا إليه خاضعةً يأخذ من مالها ومن دمِها

وقال الآخر :

---

[1] – سنن أبي داود :٣ / ٢٩٨ ، سنن البيهقي الكبرى :١٠ / ٩٦ ، سنن الترمذي : ٦١٤/٣

أنا ابنُ الذى لا ينزلُ الأرض قِدره
وإن نـزلـتْ يَومـــا فسوف تعـودُ
ترى الناس أفواجـًا إلى ضوء ناره
فمنهـم قيــامٌ حـولهــا وقـُعُــودُ

فسأل عنهما بعد ذهابهما ؛ فقيل : ابنا حجَّام ، وطباخ ؛ فتعجب .
فقد فهم الوالى أن الغلامين من أسرتين ذواتى حسب وجاه ، فإذا بهما من سُوقة الناس ، ففى المثالين : التوجيه وفيه تبدو ثقافة الغلامين وبصرهما بالأدب ، ودرايتهما بأسرار النظم .
وصدق الرسول - ﷺ - "إن من البيان لسحرا" . ([1])

الفرق بين التوجيه والتورية :

المعنيان فى التوجيه من حيث القرب والبعد سواء ، وأما فى التورية فأحدهما قريب واضح غير مراد ، والثانى بعيد خفى هو المراد .
والمعنيان فى التوجيه متضادان ، أما فى التورية فلا يجب ذلك .

ومن بلاغة التوجيه أنه بهذا الإيهام يستطيع قائله أن يدافع عن نفسه إذا اقتضى الحال ذلك ويقول : ما أردت إلا الخير .
وبالتوجيه تبدو مهارة القائل وبلاغته ودرايته بفنون الكلام وأساليبه .

---

[1] - صحيح ابن حبان : ١٣ / ١١٢ ، موطأ مالك : ٢ / ٩٨٦ ، شـرح سنن ابن ماجه : ١ / ٢٦٦

الاستخدام

وهو من المحسنات المعنوية ولم يتنبه له المتقدمون ولا شعروا أنه دخل معهم فى بيت تحت قفل قافية .

وأما المولدون من الشعراء كالفرزدق وجرير ومن عاصرهما ، وخاض معهما لجة بحر البلاغة فلم يرد أحد منهم ورد هذا الغدير .

وأما الذين تفقهوا من بعدهم فى الآداب ، وتنبهوا لتخلل طرقه بالطلب فربما قصدوا بعض أنواع البديع ؛ فجادت إذ جاء ت ، وفاتت مرة أخرى وأخرى فاء ت وقد قصدا أبو تمام كثيرا من الجناس وفتح أبوابه ، وشرع طرقه للناس .

وأما التورية والاستخدام فما تنبه لمحاسنهما ، وتيقظ إلا من تأخر من الشعراء والكتاب ([1])

والاستخدام فى اللغة "استفعال من الخدمة ؛ سمى بذلك لأن الكلمة خدمت لمعنيين ؛ فجعل المعنى الذى لم يرد أولا تابعا فى التركيب خدمة للمعنى المراد ؛ فرد إليه الضمير" ([2])

وعرفه الخطيب بقوله : "هو أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما ثم بضميره معناه الآخر ، أو يراد بأحد ضميريه إحداهما ، وبالآخر الآخر"([3]) فمثال الأول قول معاوية بن مالك :

إذا نزل السماءُ بأرض قوم رعيناهُ وإن كانوا غضابا

كلمة "السماء" أريد بها المطر على سبيل المجاز المرسل بعلاقة المحلية أو المجاورة . والقرينة لفظ "نزل" . والضمير فى "رعيناه" عائد على "الشمس" مراد به النبات وهو مجاز

---

[1] – الصبغ البديعى فى اللغة العربية : ٣٦١

[2] – عقود الجمان : ٢ / ١٠٠

[3] – الإيضاح : ٤ / ٣٣

مرسل علاقته السببية . والقرينة : رعيناه ؛ إذا الراعى يكون للنبات .

وقال أخر :

وللغزالـــــــةِ شـــئٌ مـــن تلفتـــه
ونورَهـا مـن ضيـاء خديـه مُكتَسب

أراد بالغزالة أولا : "الحيوان المعروف" ثم أعاد الضمير فى " نورها " على الغزالة وأريد : الشمس .

ومثال الثانى قول البحترى :

فسقى الغضا والساكنيه وإن هُم
شبُّوه بين جوانحِى وضُلوعى

أراد بضمير الغضا فى قولـه : "والساكنيه" : المكان . وبقولـه : "شبوه" : الشجر .

ومن أمثلته فى الكتاب العزيز قولـه تعالى : "شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه" ([1])

أريد من الشهر فى قولـه: "فمن شهد منكن الشهر فليصمه" كقولك : شهدت الجمعة . أى صلاتها ؛ فيكون ما بعده مخصصا له " ثم أعيد على الشهر ضميره مرادبه الزمان الواقع بين شعبان وشوال.

وقد يكون الاستخدام بغير هذين الأمرين ، فمن ذلك ما ذكره الشهاب الخفاجى فى " طراز المجالس " حيث ذكر له أقساما ؛ منها : أن يكون بغير الضمير ، فيكون بالتمييز من غير ضمير ؛ كقول شيخنا محمد الصالحى الشامى فى قصيدة أرسلها إلىَّ : "وأختُ الغزالة إشراقًا ومتلفتا"

---

[1] – سورة البقرة : ١٨٥

قولـه : " إشراقا ومتلفتا " منصوبان على التمييز ؛ والإشراق راجع إلى الغزالة باعتبار الشمس ، والمتلفت راجع إلى الغزالة باعتبار الظبى ([1])

الفرق بين الاستخدام والتورية :

الاستخدام يراد به كلا المعنيين ، أما التورية فيراد بها أحدهما اعتمادا على قرينة خفية .

بلاغة الاستخدام : مما تتضمنه أمثلة الاستخدام الإيجاز ؛ ففى قولـه : "فسقى الغضا والساكنيه" نجد أن قولـه : "والساكنيه" بمعنى والساكنى هذا المكان .

وفى الاستخدام إيقاظ للفكر وحمله على إدراك المعنى المراد من المعنيين اللذين يحتملها النص .

[1] – طراز المجالس للشهاب الخفاجى : ٢٧٢

اللف والنشر

وهو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ، ثم ما لكل واحد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرده إليه ([1]) .
وقولـه : "من غير تعيين" قيد يخرج به : التقسيم .
فاللف يذكر أولاً ، ويعقبه النشر ، واللف إما يكون على سبيل التفصيل ، أو الإجمال . وبيان ذلك :

الأول : اللف على سبيل التفصيل . وهو ضربان :

١ - أن يكون النشر واردًا على ترتيب اللف كقولـه تعالى : " ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله " ([2])
وفيه كذلك مزية الاختصار ، لأن المخاطبين يعلمون وقت السكون ، ووقت الاكتساب . أى : الليل والنهار . فالقرينة حالية .
يقول المبرّد : "والعرب تلف الخبرين المختلفين ، ثم ترمى بتفسيرهما جملة ، ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبرة"([3]) ثم استشهد بهذه الآية الكريمة .
وقال تعالى : "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورا"([4])

لفّ فى الآية بين نهيين : النهى الأول عن البخل ، والنهى الثانى عن الإسراف . فالمؤمن يجب أن يكون وسطًا . أى

---

1 – الإيضاح : ٤ / ٣٤
2 – سورة القصص : ٧٣
3 – الكامل : ١ / ١٢٨
4 – سورة الإسراء : ٢٩

فى المنزلة الوسطى بين البخل والإسراف . ثم نشر على سبيل الترتيب ؛ فقال "ملومًا محسورا" ؛ فقدم اللف على النشر ، وهو على ترتيب اللف. فالملوم راجع لقوله: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك" كما قيل : "إن البخيل ملوم حيثما كان" ، والمحسور راجع إلى قولـه : "ولا تبسطها كل البسط" .

وقال ابن الرومى :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم
في الحـــادثاتِ إذا دجوْن نجوم
فيها معالمُ للهدى ومصابيحٌ
تجلوُ الـدُّجى والأخرياتُ رُجـوم

ذكر أولا : الآراء والوجوه والسيوف ثم ذكر ما لكل من هذه الثلاثة على الترتيب كما لا يخفى .

وفى البيت الأول محسن بديعى هو : الجمع حيث جمع بين هذه الثلاثة فى حكم واحد وهى "فى الحادثات نجوم" .

وقال الشاعر :

كـــأن قلوب الطيـر رطبًا ويابســـا
لدى وكرها العُنّـاب والحشف البالى

شبه الشاعر "قلوب الطير" فى حالتين مختلفتين : "رطبا ويابسا" بشيئين مختلفين "العناب والحشف البالى" وجاء هذا على طريق اللف والنشر المرتب ، وفى كلام مختصر ، لأنه مفهوم المعنى ([1])

٢- أن يكون واردا على غير ترتيبه . كقول ابن حيُّـوس :

---

[1] – الصور البديعية فى كتاب الكامل لمحمد بن يزيد المبرّد ٤٤

كيف أسلوا وأنتِ حِقف وغصنُ
وغزال لحظًا وقدًّا وردفا

الحقف : مجتمع الرمل المستدير . وقوله : اللحظ يرجع إلى تشبيهها بالغزال ، والقد . إلى : الغصن ، والردف إلى الحقف .

ومنه قول الفرزدق :

لقد خنتَ قوما لو لجأت إليهمُ
طريد دمٍ أو حاملا ثِقل مغرم

لألفيت منهم مَعطيا أو مطاعِنا
شزْرا بالوشيجِ المقوم

اللف بين قوله : "طريد دم" وقوله : "حاملا ثقل مغرم" فقوله :

"طريد دم" يرجع إلى : "حاملا ثقل مغرم" ، و "مطاعنا" يرجع إلى كونه طريدا ، فالنشر على غير ترتيب اللف . وقوله : " طريد دم " كناية عن كونه قاتلا .

الثانى : اللف على سبيل الإجمال ، ومثاله قوله تعالى : "وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى"([1]) فإن الضمير فى (قالوا) لأهل الكتاب من اليهود والنصارى .

والمعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، والنصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فكان اللفّ بين القولين ؛ ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله ، وأمنا من الإلباس ، لما علم من التعادى بين الفريقين ، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه ([2])

[1] – سورة البقرة : ١١
[2] – الإيضاح : ٤ / ٣٦

وقد يجئ النشر فاصلا بين أجزاء اللف ، ومنه قوله تعالى : "ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله" ([1])

النشر قوله : "بالليل والنهار" فاصلا بين جزئى اللف وهو: "منامكم" و "ابتغاؤكم من فضله" .

يقول الزمخشرى : "هذا من باب اللف ، وترتيبه : ومن آياته بين القرينتين الأولين بالقرينين الآخرين ، لأنهما زمانان ، والزمان والواقع فيه كشئ واحد مع إعانة اللف على الاتحاد"([2])

بلاغة اللف والنشر :

فى اللف والنشر الإيضاح والتفصيل بعد الإجمال ففيه راحة للنفس بالإفادة كى لا تذهب فى تفسير المبهم مذاهب شتى وفى النشر ترابط باللف فيقوى الارتباط بين أجزاء الكلام وهو من بدائع النظم .

والتحسين بهذا الفن البديعى يتحقق إذا ورد فيض البديهة غير متكلف وكان فى الكلام بقدر . أما إذا كان كثيرًا فإنه يكون عبئًا على المعنى ، ويكون ممقوتًا كما فعل بعض المتأخرين .

---

[1] – سورة الروم : ٢٣

[2] – الكشاف : ٣ / ٢١٨

التجريد

ورد هذا المحسن كثيرا فى القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربى .

وفى بيان منزلته يقول ابن جنى : "إعلم أن هذا فصل من فصول العربية طريف حسن ، وكان "أبو على" به غربًا معنيا ، ولم يفرد له بابا ، لكنه وسمه فى بعض ألفاظه بهذه السمة واستقريتها منه ، وأنقت له .

ومعناه أن العرب قد تعتقد فى الشئ من نفسه معنى آخر ، كأنه حقيقتة ومحصوله ، وقد يجرى ذلك إلى ألفاظها لما عقدت عليه معانيها" ([1])

التجريد فى اللغة : إزالة الشئ عن غيره . قال العلوى : "جردت السيف عن غمده ، وجردت الرجل عن ثيابه إذا أزلتهما عنهما"

وعرفه الخطيب بقولـه : "وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فى تلك الصفة ، مبالغة فى كمالها فيه" ([2])

ويفاد من هذا التعريف الأمور التالية :

١ ـ المجرد منه : وهو الموصوف (الأصل) الذى بلغت الصفة فيه درجة الكمال ـ على سبيل الإدعاء .

٢ ـ المجرد : وهو الموصوف الذى انتزع من المجرد منه .

٣ ـ الصفة : التى أريد بيان كمالها فى الموصوف (الأصل).

أقسام التجريد :

التجريد إما أن يكون بأداة ـ أى بحرف من حروف الجر الثلاثة وهى : من ، والباء ، وفى ، أو بحرف العطف

---

[1] – الخصائص : ٢ / ٤٧٣

[2] – الإيضاح : ٤ / ٤٤

"الواو" أو يكون بطريق الكناية ، أو بمخاطبة الإنسان نفسه.
وإليك البيان :

١ـ أن تدخل "مِنْ" على المنتزع منه . مثل : لى من فلان صديق حميم ـ أى بلغ فلان من الصداقة مبلغا صح معه أن يستخلص منه صديق آخر . وهذا المثال لا يفيد التشبيه .

وقال أعشى باهله يرثى المنتشر بن وهب الباهلى :

أخو رغائب يعطِيها ويُسألُها
يأبى الظّلامة منه النوفلُ الزُّفر

جرد الشاعر من "المنتشر" شخصا آخر مبالغة فى عطائه ونصرته . وقد اتبع أبو العباس المبرِّد هذا البيت بقوله : "وإنما يريده بعينه" كقولك : "لئن لقيتَ فلانا ليلقينك منه الأسد" وقوله : "النوفل" من قولهم : "إنه لذو فضل ونوافل"([1])

وقال الشيخ عبد القاهر: "المعنى الزفر ، وليس النوفل الزفر باسم لجنس غير جنس الممدوح كالأسد ، فيقال : إنه شبه الممدوح بالممدوح به ، وإنما هو صفة كقولك : هو الشجاع ، وهو السيد وهو النهاض بأعباء السيادة" ([2])

وقد يفيدالتجريد بهذه الأداة التشبيه مثل رأيت منك بدرًا . وهو أبلغ صور التشبيه .

يقول الإمام عبد القاهر : "إنك تقول زيد كالأسد أو مثل الأسد أو شبيه بالأسد ؛ فتجد ذلك تشبيها غُفلا ساذجا ثم تقول: كأن زيدً الأسد ؛ فيكون تشبيها أيضا إلا أنك ترى بينه وبين الأول بونا بعيدا ؛ لأنك ترى له صورة خاصة ، وتجدك قد فخمت المعنى وزدت فيه بأن أفدت أنه من الشجاعة وشدة البطش

---

١ – الكامل : ١ / ٥٤

٢ – أسرار البلاغة : ٢ / ١٩٦

وأن قلبه لا يخامره الذُعر ولا يدخله الروع بحيث يتوهم أنه الأسد بعينه ثم تقول : لئن لقيته ليلقينك منه الأسد ، فتجده قد أفاد هذه المبالغة لكن فى صورة أحسن وصفة أخص . وذلك أن تجعله فى " كأن " يتوهم أنه الأسد وتجعله هنا يرى منه الأسد على القطع ؛ فيخرج الأمر عن حدِّ التوهم إلى حدِّ اليقين" .

ومنه قوله تعالى فى صفات عباد الرحمن : "والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين"([1]) فقد دعوا الله - تعالى - أن يهب لهم أزواجا وذرية ، غاية فى الصلاح ، فتقر بها أعينهم لدرجة يصح معها أن ينتزع منهم أزواجا وذرية يكونون قرة للأعين ([2])

٢ - التجريد بالباء كقول الشاعر ([3]) :

وشوهاءَ تعدُو بى إلى صارخ الوغى
بمستلئم مثل الفنيق المرحَّل

أى : تعدو بى ومعى من نفسى لكمال استعدادها للحرب مستلئم أى لابس لأمة .

وقال الزمخشرى فى قوله تعالى : "الرحمن فاسأل به خبيرا" ([4]) : أو فسلْ بسؤاله خبيرا كقولك : رأيت أسدا . أى برؤيته . والمعنى : إن سألته وجدته خبيرا ([5])

٣ - التجريد بالحرف " فى " قال تعالى : " ذلك جزاء أعداء

---

[1] - سورة الفرقان : ٧٤
[2] - دراسات فى علم البديع للدكتور : عبد الله هنداوى : ٨١ باختصار
[3] - الإيضاح : ٤ / ٤٥
[4] - سورة الفرقان : ٥٩
[5] - الكشاف : ٣ / ٩٨

الله النار لهم فيها دار الخلد " ([1]) فإن جهنم - أعاذنا الله منها - هى دار الخلد ، لكن انتزع منها مثلها ، وجعل معدًا فيها للكفار ، تهويلا لأمرها ([2])

ومن أمثلته قوله تعالى : " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر " ([3]) فقد انتزع من الرسول - ﷺ - أسوة حسنة يعنى أن الرسول - ﷺ - : " فى نفسه أسوة حسنة . أى قدوة ، وهو المؤتسَى . أى المقتدى به كما تقول : فى البيضة عشرون منًا حديد . أى هى فى نفسها هذا المبلغ من الحديد " . ([4])

ومن ذلك قوله تعالى فى الكافرين : " مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صِّرأصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته " ([5])

فقد جعلت الريح الشديدة كأنها منبعا للبرودة ومحلا لها . وفى هذا تهويل لأمرها ، وتفظيع لمخاطرها .

وقد ذكر الزمخشرى فى بيانها وجوها . منها قوله : " والثانى : أن يكون الصُّر مصدرا فى الأصل بمعنى البرد ؛ فجئ به على أصله" ([6]) . وهو معنى التجريد .

ومن ذلك قوله تعالى : " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر " ([7])

---

[1] - سورة فصلت : ٢٨
[2] - الكشاف : ٣ / ٤٥٢
[3] - سورة الأحزاب : ٢١
[4] - الكشاف : ٣ / ٢٥٦
[5] - سورة آل عمران : ١١٧
[6] - الكشاف : ١ / ٤٥٧
[7] - سورة الأحزاب : ٢١

فالرسول - ﷺ - هو نفسه الأسوة لمن أراد ذلك . والتجريد بـ "فى" يدل على أن هذه الصفة بلغت فى شخصه الكريم مبلغا عظيما حتى كأنه - ﷺ - جعل منبعا ومحلا لهذه الصفة. وفى هذا ما يدل على أن مكارم الأخلاق اكتملت فى رسول الله - ﷺ - وفيه حث للبشرية على إتباعه والتأسى به.

٤ - ويكون التجريد بطريق الكناية ؛ كقول الشاعر :

يا خير من يركب المطىَّ ولا   يشربُ كأسًا بكفٍّ من بخِلا

المعنى : أن الممدوح يشرب بكفه ، وهو ليس ببخيل .

قال الدسوقى ([1]) : " والحاصل : أن الشاعر قد جرد كريما آخر من المخاطب ، وكنى عن شربه بكفه المستلزم بنفى الشرب بكف البخيل ، ولا منافاة ... " .

وقال آخر :

إن تلقنى لا ترى غيرى بناظـرةٍ
تنس السلاح وتعرفُ جبهة الأسد

٥ - ويكون التجريد بمخاطبة الإنسان نفسه ، وهو كثير فى مطالع قصائد الجاهليين يقول الأعشى :

ودِّع هـريرة إن الـرَّكـبَ مـرتحـلُ
وهـل تطيـق وداعـًا أيهـا الـرجـل

فقد خاطب نفسه بقولـه : ودع ، وتطيق ، وأيها الرجل ، على التجريد .

وقال امرؤ القيس :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

---

[1] – حاشية : ٤ / ٣٥٥

ولكعب ابن زهير قصيدته المشهورة " بانت سعاد " ومطلعها " :

بانت سعادُ فقلبى اليومَ متبولُ   مُتيَّمٌ إثرها لم يُفْدَ مكبُولُ

وقد أعجب بها البوصيرى فعارضها بقصيد تسمى " ذُخر المعاد فى وزن : بانت سعاد " ؛ ومطلعها :

إلى متى أنت باللذات مشغول

وأنت عن كل ما قدمت مسئول

والقصيدتان فى مدح الرسول - ﷺ - ، وكلاهما من بحر البسيط .

فالبوصيرى - رضى الله عنه - لا يخاطب كعب بن زهير بقوله : " إلى متى أنت " ولكنه يخاطب نفسه على التجريد ؛ فهو يعاتبها ويذكر تقصيرها ، ويذكرها بيوم المعاد.

وقال أبو الطيب المتنبى :

لا خيل تهديها ولا مـــــــــــال

فليُسعد النطق إن لم يسعد الحـــــال

٦ - وقد يكون التجريد بطريق السياق كقول قتادة بن مسلمة الحنفى :

فلئن بقي لأرحلن بغزوة   تحوى الغنائم أو يموت كريم

فالشاعر عنى بقوله : " أو يموت كريمُ " نفسه بقرينة أنه عادل بين احتوائه على الغنيمة أو الموت ، إذ لو لم يجرد من نفسه كريما لقال : أو أموت .

ويتلاقى فى هذا المثال الالتفات مع التجريد ، فالتجريد بغير حرف . والالتفات من التكلم فى قوله : " لأرحلنَّ " إلى الغيبة بقوله : " يموت " .

ولو جاء الكلام على مقتضى الظاهر : " أو أموت " فالمثال من شواهد علمى : المعانى والبديع .

وجعل الخطيب ([1]) من هذا النوع قراءة عمرُو بن عبيد " فإذا انشقت السماء فكانت وردةٌ كالدهان "([2]) برفع وردة - وهى قراءة شاذة - والمعنى : "كانت منها أو فيها وردة مع أن المقصود أنها نفسها وردة"([3])

وبلاغة هذا المحسن وثيقة الصلة بمباحث المعانى والبيان والبديع ، وذلك بالالتفات والتشبيه والكناية .
وفى التجريد المبالغة والإقناع . ففى نحو : لئن سألت فلانـًا لتسألن به البحر . أريد إثبات صفة الكرم لفلان على سبيل المبالغة ، وعلى وجه لا ينازع فيه ؛ فتركت إثبات هذه الصفة لفلان هذا ، وأثبتها لشئ متولد عنه فى البحر . وهذا على معنى أن حال فلان تغير فأصبح شيئا لا ينازع له فى هذه الصفة .

وللتجريد فائدتان عند ابن الأثير ([4]) :
الأولى : طلب التوسع فى الكلام ، فإنه إذا كان ظاهره خطابا لغيرك ، وباطنه خطابا لنفسك فإن ذلك من باب التوسع . وأظن أنه شئ اختصت به اللغة العربية ، دون غيرها من اللغات .
والفائدة الثانية : وهى الأبلغ . وذاك أنه يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصود من مدح أو غيره على نفسه ؛ إذ يكون مخاطبا بها غيره ؛ ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقولـه ، غير محجور عليه .

---

[1] – الإيضاح : ٤ / ٤٥
[2] – الآية : ٣٧ من سورة الرحمن ".. فكانت وردة .." بنصب "وردة"
[3] – حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى : ٨ / ١٣٦
[4] – المثل السائر : ٢ / ٢٦٣

المبالغة

المبالغة : هى الزيادة فى الوصف بدرجات متفاوتة ، تبدأ من درجة المعقول الممكن حتى درجة اللامعقول المستحيل ([1])

وسماها كل من ابن المعتز ، وابن أبى الإصبع المصرى : " الإفراط فى الصفة " وسماها قدامة بن جعفر " المبالغة " ويقول ابن أبى الأصبع : " إن الناس على تسمية قدامة " .

ويقول أبو هلال : " المبالغة : أن تبلغ أقصى غاياته ، وأبعد نهاياته ، ولا تقتصر فى العبارة عنه على أدنى منازله ، وأقرب مراتبه " ([2])

ويقول أسامة بن منقذ : "أعلم أن المعنى إذا زاد عن التمام سمى " مبالغة " وقد اختلفت ألفاظه فى كتبهم ، فسماه قوم : الإفراط ، والغلو ، والإيغال ، والمبالغة ، وبعضه أرفع من بعض" ([3])

فالمبالغة تدور فى مباحث المعانى ، والبيان كما هو معلوم ، ولكنها فى " علم البديع " مبحث مستقل .

والمبالغة فى الإصطلاح هى : " أن يدعى لوصف بلوغه فى الشدة أو الضعف حدا مستحيلا ، أو مستبعدا لئلا يظن أنه غير متناه فى الشدة أو الضعف "([4])

---

١ – فى البلاغة العربية : علم البديع : ٨٢

٢ – الصناعتين : ٣٦٥

٣ – البديع فى نقد الشعر : ١٠٤

٤ – الإيضاح : ٤ / ٤٧

مذاهب العلماء فى المبالغة :

١ ـ من العلماء من يؤثر المبالغة ، ويقول بتفضيلها ، ويراها الغاية القصوى فى الجودة ، وأصحاب هذا الرأى يرون أن " أجود الشعر أكذبه" ويستشهدون بنقد النابغة للشاعر حسان ابن ثابت فى قوله :

لنا الجفنات الغُرَّ يلمعْن فى الضحى
وأسيافنُا يقطرْن من نجدةٍ دما

وذلك أن مقام الفخر يستدعى المبالغة ، وقد كان على الشاعر أن يراعيها فى كلامه ، وهذا معروف مشهور .

٢ ـ ومنهم من يرد المبالغة وينكرها ، ويراها عيبًا وهجنة فى الكلام .

وذلك أن المبالغة ربما أحالت ـ أفسدت ـ المعنى ، ولبسته على السامع ، والبلاغة هى : الإبانة والإفصاح ، وتقريب المعنى على السامع .([1])

ويزعم هؤلاء أن المبالغة من ضعف الكلام وعجز المتكلم عن أن يخترع معنى مبتكرا ، أو يفرِّع معنى من معنى ، أو يحلى كلامه بشئ من البديع .. فإذا عجز عن ذلك كله أتى بالمبالغة لسد خلله ، وتتميم نقصه ، لما فيها من التهويل على السامع ، ويستشهد أصحاب هذا الرأى بقول الشاعر :

وإنما الشعرُ لبّ ُ المرء يعرضه
على المجالسِ إن كَيسا وإن حُمقا
فإن أشعرَ بيت أنت قائلُه
بيت يُقال إذا أنشدتَه صدقَا([2])

---

[1] ـ العمدة : ٢ / ٥٣

[2] ـ انظر تحرير التحبير : ١٤٨

٣ ـ المذهب الوسط بين المذهبين وهو : أن المبالغة مقبولة إذا كان طابعها الإعتدال ، وهى مرفوضة إذا جاوزته .
يقول ابن رشيق : " ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه ، وعيبت الاستعارة إلى كثير من محاسن الكلام - ومعلوم أن أمر هذين مبنى على المبالغة .
وقد استند أصحاب هذا الرأى في رفض بعض أمثلة المبالغة على هذا الغلو الصارخ الذى درج عليه بعض الشعراء أمثال ابن هانئ الأندلسى ، وأبى نواس ، والمتنبى ([1])

أقسام المبالغة :

أولاً : التبليغ : وهو أن يكون الوصف المدعى ممكنا عقلا وعادة ، يعنى يقبله العقل ، ويمكن وقوعه .

ومثاله قول امرئ القيس يصف فرسه:

فعادى عِداء بين ثوْر ونعجةٍ   دراكًا فلم ينضحْ بماء فيغسل

وصف هذا الفرس بالقوة والصلابة ، ولذا فإنه أدرك فى مضمار واحد ثورا وبقرة وحشيين ولم يغرق . وهذا أمر ممكن عقلا وعادة .

وقال أبو الطيب يصف فرسه :

وأصرع أيَّ الوحش قفيتهُ به   وأنزل عنهُ مثله حين أركبُ

ومعناه قريب من معنى بيت امرئ القيس ، ففرس أبى الطيب يكون فى نشاطه حين ينزل عنه ، وذلك بعد رحلة الصيد .

وقال ابن الرومى يهجو بخيلا :

فتًى على خبزه ونائِله   أشفق من والـــــدٍ على ولده
رغيفهُ منه حين تسألُه   مكان رُوح الجبانِ من جسده

---

[1] - محاضرات فى علم البديع : ٢٤

فالمعنى أن البخيل يخاف على خبزه أن يأكل منه أحد ، فرغيفه مهم ، ويخاف أن يفرط فيه مثل الجبان ، يخاف أن يحارب ، فتزهق روحه .
هذا الوصف ممكن عقلا ، فالبخل ـ أعاذنا الله منه ـ إذا ملك إنسانًا أنساه نفسه ، وقتر عليها [1]

وقال ابن الرومى يهجو بخيلا :
لو أن قصرك يا ابن يُوسف مُمتلٍ
إبرًا يضيق بها فِناء المنزلِ
وأتاك يوسفُ يستعيرك إبرةً
لِيخيط قدَّ قميصهِ لم تفعلِ
فقد بالغ الشاعر فى وصف مهجوه بالبخل ، ووصفه بأنه لو كان يمتلك إبرا يضيق بها فناء منزله ، وجاء أبوه " يوسف " يستعيره إبرة واحدة ـ وهى لا تساوى شيئا ـ ما أعطى أباه تلك الإبرة . فهذا ممكن عقلا وعادة وفى الدنيا كثير من الغرائب .
وفى المثال أيضا " التورية " حيث ورَّى بقميص يوسف للقدود فقوله " قد قميصه " يلائم المعنى القريب الذى أراده ابن الرومى ، وهو ذم " ابن يوسف " الذى هجاه . والتورية مرشحة .

الثانى : الإغراق : وهو أن يكون الوصف المدَّعى ممكنا عقلا ، لا عادة .
ومثاله قول الشاعر :
ونكرمُ جارنا مادام فِينا
ونتبعهُ الكرامة حيثُ مالا

[1] – ألوان من البديع : ١٤٨

أدعى أن جاره لا يميل عنه إلى جهة إلا وهو يتبعه الكرامة . وهذا ممتنع عادة ، وإن كان غير ممتنع عقلا .

وقال جرير :

إذا غضبتْ عليك بنوُ تميم   حسبتْ الناس كلهمُ غِضابا

يريد أن يقول : إن بنى تميم لهم تأثير فى الناس ، ولكن جريرا بالغ فى هذا المعنى وأدعى أنهم إذا غضبوا على إنسان فإن الناس جميعا ينزلون على حكمهم ، وهذا المعنى جائز من جهة العقل ، وإن امتنع من جهة العادة ، وقد قرب هذا المعنى بلفظ : "حسب" .

ومن ذلك قول أبى الطيب :

وما الدهر إلا من رُواة قصائدِى
إذا قلتَ شعرا أصبح الدهرُ منشدا

فهذا المعنى غير ممتنع عقلا ، وإن كانت لهم تجربة العادة .

وقال أيضًا أبو الطيب :

كفَى بجسمِى نَحولا أننى رجلٌ
لولا مخاطبتِى إياك لم ترنى

أغرق الشاعر فى وصف جسمه بالنحول ، فأدعى أنه لولا مخاطبته إياه لم يره الناظر إليه .

وقال امرؤ القيس :

تنورتُها من أذرعاتٍ وأهلُها
بيثرب أدنَى دارها نظرٌ عالِ

فقد أدعى أنه وهو فى الشام رأى النار فى المدينة ، ورؤيته النار على هذه المسافة البعيدة ممتنعة فى مجرى العرف والعادة(1)

1 – محاضرات فى علم البديع : ١٨

ومن الإغراق ما ذكره أبو العباس المبرِّد ضمن "تكاذيب الإعراب"([1]) قال :

ومن ذلك ما يحكون فى خبر "لقمان بن عاد" فإنهم يصفون أن جارية له سئلت له عما بقى من بصره ، لدخولـه فى السِّن ؟ فقالت : والله لقد ضعف بصره . ولقد بقيت على منه بقية . إنه ليفصل بين الأنثى والذكر من الدَّرِّ إذا دبَّ على "الصَّفا".

فهذا غلو ظاهر من جهات شتئ ، وهو غنى عن البيان ومنه قول أبى الطمحان القَيْنى :

أضاءتْ لهم أحسابهُم ووجوههم
دُجى الليل حتى نظم الجزعَ ثاقبهُ

إضاءة الأحساب والوجوه على تلك الحال استعارة تصريحية ، أو مكنية . وذلك بعيد عقلا وعادة .

قال الخطيب فى هذين النوعين : وهما مقبولان .

الثالث : الغلو : وهو أن يكون الوصف المدعى غير ممتنع عقلا وعادة .

والغلو قديم فى كلام العرب ولـه أنصاره ورواده ، يقول القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى باب "غلو القدامى" .

فأما الإفراط فمذهب عام فى المحدثين ، وموجود كثير فى الأوائل ، والناس فيه مختلفون ، فمستحسن قابل ، ومستقبح راد ، ولـه رسوم متى وقف الشاعر عندها ، ولم يتجاوز الوصف حدَّها جمع بين القصد والاستيفاء ، وسلِم من النقص والاعتداء ، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية ،

[1] – الكامل فى اللغة والأدب : ٢ / ٢٠٧

وأدته الحال إلى الإحالة ، وشعبة من الإغراق ، والباب واحد ، ولكن له درج ومراتب ([1])

فالجرجانى يحكم الذوق فى قضية المبالغة ، ما قبله السليم فهو جيد ، وما مجه فهو ردئ ، ثم يحذر من اتجاه الذوق مذهبا كى لا يؤدى الأمر إلى فساد اللغة ([2])

والذوق المعتدل رافد من روافد الحكم السليم والهادف إلى الصواب ، وهو يسير جنبا إلى جنب مع القواعد والضوابط التى اصطلح عليها علماء النقد والبلاغة .

والغلو ضربان : مقبول ، ومردود .

١ - فالمردود : ما لم يقترن به شئ يقربه من الصحة والإمكان ومثاله قول أبى نواس يمدح هارون الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه
لتخافك النطفُ التى لم تـُخلـَق

فما ادعاه ممتنع عقلا وعادة ؛ ولذا فإنه مردود ومرفوض " وهذا المعنى - كما ترى - أو غل ما يكون فى الكذب ، أو ما هو أبعد من الكذب ، لأن فيه دعوى ما هو مستحيل ، ولا تقبل فيه الشفاعة من شفيع .. فمن لم يخلق إنما هو عدم ، والخوف أمر وجودى فكيف يوصف المعدوم بما هو وجودى؟! إنه افتراء فاحش " ([3])

وقال ابن هانئ الأندلسى :

شئت لا ما شاء تِ الأقدارُ
فأحكم فإنك أنت الواحد القهار

[1] – الوساطة : ٢٤٠
[2] – البديع تأصيل وتجديد : ١٣٢
[3] – من قضايا البلاغة والنقد : ١٣٨

فما قاله يخالف العقيدة . وفيه جرأة ظاهرة على صفات الله - تعالى - نعوذ بالله من ذلك .
ومن الغلو المرفوض قول صفيّ الدين الحلى :
ملِكٌ إذا اكتحل الملوكُ بنوره   خرّوا لهيبتهِ إلى الأذقان
فالشاعر أعطى الممدوح محمد بن قلاوون من الصفات ما يجب أن تعطى لله وحده .. فالسجود لله دون غيره .. ومن صرف هذه العبادة لغير الله فقد أشرك به . ([1])
وفى الشطر الثانى اقتباس من قوله تعالى فى صفات الذين أوتوا العلم من صالحى أهل الكتاب الذين يُمسكون بكتابهم ويقيمونه ، ولم يبدلوه ولا حرفوه ([2]) : " ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا " ([3]) فالسجود والتضرع بالدعاء مع البكاء خوفا من النار ، وأملا فى رضا الله ، ونيل ثوابه لا يكون إلا لله وحده .
وقال هذا الشاعر فى ممدوحه :

لو قابل الأعمى غدا بصيرا
ولو رأى ميْتا غدا منشورا
ولو يشا الظلامَ كان نُورا
ولو أتاه الليلُ مستجيرا
أمّنه من سطوات الفجر

فالشاعر " الحِلّى " جعل ممدوحه " الأرتقى " فى مقام عيسى - عليه السلام - الذى أعاد البصر إلى من ولد أكمه - أعمى - منذ ولادته ، وردَّ الحياة إلى ميت ، وكان ذلك بإذن الله وقدرته لا بقدرة المسيح - عليه السلام - ولا بقوته الذاتية .

---
[1] - البلاغة العربية فى ثوبها الجديد . علم البديع : ٣٦
[2] - انظر تفسير القرآن العظيم : ٥ / ١٢٥
[3] - سورة الإسراء : ١٠٩

كذلك نرفض : " ولو يمس الظلام كان نورا " لأنه جعله بمثابة الخالق لهذا الوجود ، مسير الليل والنهار ، وخالق النور والظلام (١)

٢ ـ **والغلو المقبول : ما اقترن به ما يقرب إلى الصحة** والإمكان ، وهو أصناف ، وسأبين ذلك كما قال الخطيب وسار عليه الكثير من العلماء .

أحدها : ما أدخل عليه ما يقربه إلى الصحة نحو لفظ "يكاد" فى قوله تعالى "يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار"(٢) وفى قول الشاعر يصف فرسًا :

ويكاد يخرجُ سرعة عن ظله
لو كان يرغبُ فى فراق رفيق

والثانى : ما تضمن نوعًا حسنا من تخييل الصحة والإمكان كقول أبى الطيب :

عقدت سنابكُها عليها عِثيرا   لو تبتغِى عنقا عليه لأمكنا

العثير : الغبار ، العنَق : السير السريع ، أدعى الشاعر أن الغبار المثار من سنابكها بلغ من الكثرة وأنه جعل كالأرض فى الهواء والذى صير هذا الغلو مقبولا هو "لولا" .

وقال ابن حمديس الصقلى يصف فرسه :

ويكاد يخرجُ سرعة عن ظلِه
لو كان يرغبُ فى فراق رفيق

فالفرس بلغ من سرعته أنه يكاد يسبق ظله ، ومعلوم عقلا وعادة أن الظل لا يفارقه ، والذى قرب هذا من الصحة ذكر "يكاد" .

---

١ – سورة النور : ٣٥
٢ – البلاغة العربية فى ثوبها الجديد . علم البديع : ٣٦

والثالث : ما أخرج مخرج الهزل والخلاعة كقوله :

أسكرُ بالأمس إن عزمتُ على الشر
بِ غـــدًا إن ذا مــن العجــب

أدعى أن عزمه على الشرب غدًا يسكره اليوم ، وهذا محال عقلا وعادة ، والذى قربه من الصحة أن أبا نواس قصد الهزل مع رفاق السوء .

ويعلق الدكتور عبد العظيم المطعنى على هذا البيت :

" مدعى محال جدًا كما ترى لا يسلم به عقل ولا واقع ، ومع هذا فقد قبله النقاد أو بعضهم ، وقبله البلاغيون ؟! والسبب أن هذا الكلام سيق مساق الهزل والخلاعة ؟!

ولو أنهم قالوا : سيق مساق التفكه والتظرف والاستظراف لكان أنسب ، ولكنهم أصروا على"الخلاعة" ، ولست أدرى ما الذى أغراهم بهذا اللفظ المريب [1]

ويقول الدكتور المطعنى : عند استشهاد الخطيب وعدد من شراح التلخيص للغلو بقولـه تعالى : " يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار " [2] قد أساءوا إلى هذا النص الكريم من جهتين :

الأولى : حيث أطلقوا عليه وصف الغلو ، وهو إدعاء ما ليس بواقع واقعا ، وهذا تجرؤ غير محمود على كلام الحكيم " الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " [3]

الثانية : حيث فسروا سبب قولـه ؛ فقالوا : إن المبالغة فيه قد اقترنت بما يقربها من الصحة ! .. وهو لفظ (يكاد) ، ومعنى هذا : أن هذه العبارة باطلة فى الأصل ، ولفظ (يكاد)

---

[1] – من قضايا البلاغة والنقد : ١٤٥
[2] – سورة النور : ٣٥
[3] – سورة فصلت : ٤٣

يقربها نوعًا من الصحة ! .. وقد أدرك بعض الشراح (1) شناعة هذا القول ؛ فعلق عليه قائلا : "كان ينبغى أن يقول : أدخل عليه ما يخرجه عن الامتناع تأدبا ، إذ صحة كلام الله لا مزيد عليها" .

وهذا استدراك واجب ، ولكنه عمل واحد منهم - شراح التلخيص - وبقى الآخرون مصرين على تخريجهم .
والنص الكريم فوق ما زعموا ، فالمراد كما يفهم من السياق: وصف الزيت بالصفاء والنقاء حتى إنه قارب درجة الإضاءة وإن لم يكن مضيئا حقيقة ، وإنما فيه نوع من البريق واللمعان .

وليس فى هذا غرابة ولا خروج عن مسلمات العقل حتى تكون الآية من قبيل الغلو وإن عدوه مقبولا ، وإضاءة بعض الأجسام من غير مس نار لها حقيقة واقعة فى العصر الحديث ؛ فمؤشرات بعض آلات ضبط الوقت - الساعة - المصنوعة من " الفوسفور " تضئ ليلا فى حالك الظلام حتى إن صاحبها ليمكنه أن يعرف من النظر إليها حقيقة الوقت الذى هو فيه بالضبط ولو كان فى غرفة مظلمة "(2)

هذا إلى أن المعنى ، والله أعلم - أن هذا الزيت لم يضئ فعلا ، ولكنه من شدة صفائه وتألفه يقرب من الإضاءة. فالنص القرآنى بعيد عن الغلو والإفراط ، بل هو من الحقيقة.

---

1 - هو ابن يعقوب المغربى ونص عبارته : " وينبغى لما مثل بالآية أن يقول بدل قوله : " يقربه إلى الصحة " لا يظهر معه الامتناع تأدبا وهو كذلك " ، مواهب الفتاح ضمن (شروح التلخيص) : ٤ / ٣٦٢

2 - من قضايا البلاغة والنقد : ١٤٩

وأقول : إن من شواهد الغلو الذى لم يشفع له تصديره بـ "لو" قول الإمام عبد الرحيم البرعى([1]) فى الشيخ على الأهدل :

ولو أشار إلى نار السعير خبتْ
إذ ذاك وانطفأتْ من نوره النّارُ
ولو دعا بجمادِ الأرض معجزةً
لبّاه تُربٌ وأشجارٌ وأحجارُ

فلا يقدر على إطفاء نار السعير - أجارنا الله منها بكرمه - إلا الله - سبحانه وتعالى - ، كما أن نور الشيخ علىّ لا يطفئ هذه النار .

هذا إلى أن المعجزات لا يجريها الله - تعالى - إلا على يد مدّعى الرسالة تصديقاله فى دعواه ، وهى تفضل من الله - تعالى - عندما يريد فكيف يجعلها البرعى طوع بنان صاحبه؟! هذا غلو ممقوت من جهتين . بل أنه من شطحات المتصوفة .

---

[1] – ديوانه : ٢١٧ . والبرعى هو السيد عبد الرحيم بن أحمد البرعى اليمنى . العارف بالله عاش متبتلا زاهدا وتوفى قرب المدينة المنورة منتصف القرن الخامس الهجرى

حسن التعليل

وهو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقى . فالشئ يعلل بعلة خيالية مناسبة ، ولكن يحتاج فى إدراكها إلى إمعان النظر لما فيها من الدقة .

أقسامه :

هذا الوصف المراد بيان علته إما يكون ثابتا ، أو غير ثابت .

فإذا كان الوصف ثابتا فهو قسمان :

١ ـ أن لا تظهر له علة فى العادة .
٢ ـ أن تظهر له علة لكنها غير العلة المذكورة .

وإذا كان الوصف غير ثابت فهو قسمان :

١ ـ إما أن يكون ممكنا .
٢ ـ أوغير ممكن .

فعلى هذا الأقسام أربعة . وإليك بيانها :

القسم الأول : أن يكون الوصف ثابتا ، وليست له علة فى العادة ولكن الشاعر أدعى هذه العلة .

ومثاله قول أبى الطيب:

لم تحكِ نائلك السحابَ وإنما
حُمت به فصبيبها الرحضاء

فنزول المطر لا يظهر له علة فى العادة [1] ولكن أبا الطيب تخيل أن السحاب أصابته الحمى بسبب عدم محاكاته لعطاء الممدوح ، فالمطر سبب ذلك ، فهذه العلة متخيلة وليست حقيقية .

---

[1] – الإيضاح : ٤ / ٥٢

والداعى إلى هذا التعليل : أن الشاعر " قصد المبالغة فى عطاء الممدوح على سبيل التخييل المبنى على التشخيص ، وهو من المبالغة الممقوتة عند عبد القاهر الجرجانى ، إذ هو من قبيل التعليل بما هو غير معروف ؛ فخرج بالمعنى إلى ما لا أصل له فى التشبيه " ([1])

وقال أبو تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى

فالسيل حرب للمكان العالى

عطل الكريم من الغنى أى : فقره ، وهو وصف ثابت لا تظهر له علة فى العادة ولكن أبا تمام تخيل له علة ، وذلك بالقياس على أعالى الجبال ؛ فالسيل لا يستقر عليها ، بينما هو يغمر الوهاد والمنخفضات .

وفى البيت تشبيه ضمنى بقياس حالة على أخرى وفيه تأكيد وقوة لما ادعاه الشاعر .

وشبيه بما سبق قول أبى تمام أيضًا :

إن ريب الزمـان يحسن أن يهـ

ـهدى الرزايا إلى ذوى الأحساب

فلهـذا يجف بعـد اهتـزاز

قبل روض الوهاد روض الروابى

ريب الزمان : نوائبه . وأفاضل الناس وذوى المكانة ، فهم يتعرضون لهذه النوائب ، أما البسطاء والعوام فإنها بعيدة عنهم .

وليس لهذا علة فى العادة ، ولكن أبا تمام تخيل لها - على سبيل القياس - علة مناسبة ؛ فرياض الروابى لا تنال حظها من المياه ، إذ تجف عنها قبل رياض الوهاد .

---

[1] - دراسات فى علم البديع : ٦٧

فهذا التمثيل والقياس أبرز مدَّعى الشاعر وكأنه فى معرض الحقيقة الذى لا يمارى فيه ؛ فكأنه من الحقيقة .

القسم الثانى : أن يكون الوصف ثابتا وتظهر له علة فى العادة ولكنها غير العلة التى إدعاها الشاعر ، ومثاله قول أبى الطيب :

ما به قتل أعاديه ولكن   يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

فقتل الأعداء سببه : القضاء عليهم ، ولكن الشاعر تخيل له علة أخرى وهى أنه كريم ، ولا يحب أن يخلف ما تعودته الذئاب من الأرزاق التى تحصل عليها بعد فتك الممدوح بأعدائه .

فالداعى إلى قتل أعدائه إنما هو الكرم البالغ فى الممدوح حتى مع الذئاب فهذه العلة متخيلة .

وأقول : إن ما قصد إليه الشاعر بعيد عن الكرم وحسن الخلق مهما أدعى من المبررات . قال الله تعالى : "والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لايفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون"([1])

وقال أبو طالب المأمونى فى بعض الوزراء ببخارى :

مغرم بالثناء صب بكسب الـ   مجد يهتز للسماح ارتياحا

لا يذوق الإغفاء إلا رجاء   أن يرى طيف مستميح رواحا

---

[1] – سورة الشعراء : ٢٢٤ ــ ٢٢٧

وكأن تقييده بالرواح ليشير إلى أن العفاة إنما يحضرونه فى صدر النهار على عادة الملوك ؛ فإذا كان الرواح قلوا ؛ فهو يشتاق إليهم ؛ فينام ليأنس برؤية طيفهم ، وأصله مأخوذ من نحو قول الآخر :

وإنى لأستغشى وما بى نعسةٌ لعل خيالاً منك يلقى خياليا

وهذا غير بعيد أن يكون أيضًا من هذا الضرب ، إلا أنه لا يبلغ فى الغرابة والبعد عن العادة ذلك المبلغ ، فإنه قد يتصور أن يريد المغرم المتيم إذا بعد عهده بحبيبه أن يراه فى المنام ؛ فيريد النوم لذلك خاصة .

القسم الثالث :

أن يكون الوصف غير ثابت ويراد إثباته بعلة ممكنة . ومثاله قول مسلم بن الوليد :

يا واشيا حسنت فينا إساءته

نجَّى حِذارك إنسانى من الغرق

الواشى : النمام . إنسانى : يعنى : إنسان العين . فاستحسان وشاية الواشى وصف غير ثابت . أى لا يرضاها أحد ، فالوصف غير ثابت ولكنه ممكن ، ونظرا لغرابة هذا الحكم فإن الشاعر علله بقوله :

"نجَّى حِذارُك إنسانى من الغرق"

فحذار الشاعر وشاية الواشى نبهته إلى كتم شعوره ، وجعلته يترك البكاء كى لا يعلم هذا الواشى من حال الشاعر ما يكره ، فكان هذا حماية لعينى الشاعر من الغرق [1]

وقال الآخر :

أهلا وسهلا بالمشيب فإنه سمة العفيف وحيلة الزهاد

---

[1] – دراسات فى علم البديع : ٧٠ بتصرف

الترحيب بالمشيب وصف غير ثابت ، وذلك أن الناس يودون الفرار منه لو استطاعوا كما قال الآخر :

ذهب الشباب فما له من عودة
وأتى المشيب فأين منه المهرب

ولكن الترحيب به مع هذا ممكن ، ولذا علل الشاعر هذا الترحيب بما ذكره.

ومن أمثلته قول الشاعر :

جزى الله الشدائد كل خير
عرفت بها عدوى من صديقى

فالشدائد بأنواعها لا يحبها أحد ، ولكن الشاعر دعا لها ، وهذا يدل على حبه للشدائد وقبوله لها ، وعلل ذلك بالشطر الثانى .

القسم الرابع : أن يكون الوصف غير ثابت ، وأريد إثباته ، ولكنه غير ممكن الوقوع ، ومثاله البيت التالى :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمتهُ   لما رأيت عليها عقد منتطق

الجوزاء : برج فلكى حوله نجوم تسمى : نطاق الجوزاء . المنتطق : الذى شد النطاق فى وسطه .

ذكر الشاعر للجوزاء وصفا غير ثابت لاستحالة حصوله منها ثم ادعى ثبوته لها بعلة غير ممكنة وهى : شد النطاق فى وسطها لخدمة الممدوح . وذلك على سبيل التخييل ، للمبالغة فى المدح .

بلاغته : هذا المحسن تبرير لصور متخيلة غير حقيقية ، وصاحبه بحاجة إلى الصنعة . ولذا نجد له أمثلة كثيرة فى العصر العباسى وما بعده ولا سيما عندما ضعف الأدب واتخذ سمة التكلف والإفراط فى الصنعة .

ولا توجد لهذا المحسن أمثلة فى الكتاب العزيز ، لأنه يُبْنى على تبرير الخيال وفيه من المبالغة والإفراط ما ينبو عنه كتاب الله الحكيم .

وحسن التعليل إذا تضمن معنىً لطيفًا وفائدة ً حسنة كان من المحسنات البديعية وكان له تأثيره وسحره .

* * *

تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه

أولاً : تأكيد المدح بما يشبه الذم :

هذا اللون البديعى من أساليب المبالغة فى المدح ، وقد أحسن ابن المعتز - رحمه الله - حين جعله لونا من ألوان البديع وسماه " تأكيد المدح بما يشبه الذم " وعلى خطاه سار كل من جاء بعده من العلماء والمؤلفين (١) وقد بحث بعض علماء البلاغة والنقد هذا اللون البديعى تحت اسم " الاستثناء" (٢) وبعضهم تحت اسم" التوجيه " (٣) ولكن جمهور العلماء على تسمية ابن المعتز ، وهو الذى سار عليه الدرس البلاغى إلى الآن .

وفى هذا الأسلوب نوع من الخلابة (٤) والإيهام ؛ وذلك أن بدايته توهم أن الأسلوب كله ذم ، فإذا أمعنت النظر بعد وجدته من قبيل المدح ، فيتأكد عندك هذا المعنى .

---

١ – انظر : البلاغة العربية فى ثوبها الجديد . علم البديع : ٩٦ باختصار
٢ – الصناعتين : ٤٥٦
٣ – الطراز : ٣ / ١٣٦
٤ – الخلابة : هى الخداع بالقول اللطيف . اللسان (خلب)

وأضـرابـه ثـلا ثـة :

الأول : أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشئ صفة مدح بتقدير دخولها فيها كقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلـُول من قراع الكتائب

فقد نفى الشاعر صفات العيب عن هؤلاء بقولـه : " ولا عيب فيهم " ومعلوم أن النكرة فى سياق النفى تفيد العموم ، ولكنه حين قال : " غير " أوهمنا أنه سيثبت بهذه الأداة صفة ذم ، جريا على قاعدة الاستثناء فالإنسان بطبيعته بشر يخطئ ويصيب فنفس السامع مهيأة إذا لتلقّى صفة عيب أو أكثر ، ولكن الشاعر فاجأنا بإثبات صفة مدح أخرى وهى قوله :

"إن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب"

أى لا عيب فيهم إلا تثلم سيوفهم من كثرة ضرب الأعداء .
وهذا على سبيل الفرض والتقدير ، وكون هذه الفلول من قراع الكتائب عيبا محال . فثبت أنها صفة مدح أخرى ولكن بصورة مخالفة لما سبق .
ومن ثم يتأكد المدح ، ويتمكن فى نفس السامع ، ولذا أحسن ابن المعتز فى تسمية هذا اللون البديعى : "تأكيد المدح بما يشبه الذم"

وتأكيد المدح فى هذا الضرب من وجهين :

الأول : أنه كدعوى الشئ ببينة . وذلك أن النابغة علق وقوع العيب على محال وهو أن السيوف بهن فلول من قتال الأعداء ، وهذا ليس بعيب ، والمعلق على المحال محال ، فيثبت خلو الممدوحين من العيب .

والثانى : أن الأصل فى الاستثناء أن يكون متصلا فإذا نطق المتكلم بـ " إلا " أو نحوها توهم السامع أن ما يأتى بعدها

مخرج مما قبلها ؛ فيكون شئ من صفة ذم ثابتا ، وهذا ذم ، فإذا أتت بعدها صفة مدح تأكد المدح لكونه مدحا على مدح([1])

وقال ابن الرومى :

ليس به عيب سوى أنه
لا تقع العين على شَبَهِه

فى قوله : "ليس به عيب" نفى لجميع العيوب ، وقوله"سوى" إيهام بإثبات صفة عيبأو أكثر مما سبق ، فلما قال :

"إنه لا تقع العين على شبهه" أثبت صفة مدح على سبيل المبالغة ، فكان تأكيدا للمدح بما يشبه الذم .

وقال الشاعر :

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم
تُعاب بنسيان الأحبة والوطن

وقال آخر :

ولا عيب فينا غير أن سماحنا
أضربَّنا والبأس من كل جانب
فأفنى الردى أرواحنا غير ظالم
وأفنى الندى أموالنا غير عائب

الثانى : أن يثبت صفة مدح كقول النبى - ﷺ - : "أنا أفصح العرب بيْد أنى من قريش" .

أثبت لنفسه - ﷺ - صفة مدح ثم عقبها بأداة استثناء "بيدْ" فتبادر إلى الخاطر أنه سيثبت صفة مقابلة لما سبق فإذا به

---

[1] - الإيضاح : ٤ / ٥٨

يثبت صفة مدح أخرى وهى أنه من قبيلة قريش أفصح قبائل العرب على الإطلاق ؛ فتأكد المدح الأول .

ومنه قول الشاعر :

فتًى كملت أخـــلاقـه غير أنـــــه
جـــــواد فما يُبقى من المال باقيا

وهذا الضرب لا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثانى فقط من الوجهين السابقين .

الثالث : أن يأتى الاستثناء فيه مفرغا - أى لا يذكر فيه المستثنى منه - كقوله تعالى : "وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا" ([1]) أى : وما تعيب منا إلا أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان بآيات الله ، ونحوه قوله تعالى : " قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل " ([2]) فإن الاستفهام فيه للإنكار ([3]) والتقدير ما تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا . أى لا تعيبون منا شيئا . فهو نفى لوجوه العيب ثم تأكد هذا بما بعده ، فكان مدحا على مدح .

يقول ابن أبى الإصبع المصرى : إن الاستثناء بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ على ما عابوا به المؤمنين من الإيمان يوهم بأن يأتى بعد الاستثناء ما يوجب مدح فاعله كان الكلام متضمنا تأكيد المدح بما يشبه الذم([4]) .

---

[1] - سورة الأعراف : ١٢٦
[2] - سورة المائدة : ٥٩
[3] - الإيضاح : ٤ / ٦٠
[4] - بديع القرآن : ٥٠

ثانيًا : تأكيد الذم بما يشبه المدح :

وقد ورد هذا النوع قليلا فى تراثنا العربى ، ولم يرد له شاهد فى القرآن الكريم .

وأضربه ثلاثة :

الأول : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشئ صفة ذم بتقدير دخولها فيها . ومثاله : فلان لا خير فيه إلا أنه يسئ إلى من يحسن إليه .

لما قال: " فلان لا خير فيه " أفاد أنه قد نفى عن " فلان " أى صفة للمدح ، فقد بالغ فى ذمه ، فلما قال " إلا " توقع السامع أنه سيذكر بعد ذلك صفة مدح ؛ لأن ما بعد أداة الاستثناء يخالف ما قبلها فى الحكم ؛ فإذا بالمتكلم يذمه على سبيل التصريح بقوله : " إنه يسئ إلى من يحسن إليه " فكان هذا تأكيدا للذم بما يشبه المدح .

وقال الشاعر :

خلا من الفضل غير أنى
أراه فى الحُمق لا يُجارَى

ذمه أولا بالخلو من الفضل ثم أكد هذا الذم بالحمق بعد أداة الاستثناء .

والثانى : أن يثبت لشئ صفة ذم ويعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له ، ومثاله : فلان فاسق إلا أنه جاهل .

أثبت له الفسق وبعد أداة الاستثناء أثبت له الجهل فكان هذا تأكيدا للذم بما يشبه المدح .

وذلك أن السامع توقع أن المتكلم سيثبت لفلان هذا صفة مدح بعدها فإذا به يثبت صفة ذم أخرى .

الثالث : أن يؤتى من أول الأمر بالاستثناء المفرغ ومثاله : لا يستفاد منك إلا الشر .

نفيتَ الاستفادة عن المخاطب وجعلت ما بعدها معمولا لصفة المدح المنفية. فكأنك قلت : لا يستفاد منك شئ إلا الشر .

ومعنى هذا أن المخاطب معدوم الفائدة ([1]) فقوله : "لا يستفاد منك" ثم بنفى استفادة أى شئ منه ، قوله : "إلا الشر" ثم آخر بإثبات الشر منه ، فحصل به التأكيد الأول .

---

[1] – المرجع السابق : ١١٢

تجاهل العارف

من فنون البديع ما يعرف باسم " تجاهل العارف " أو " سوق المعلوم مساق غيره ".

وذلك كأن تسأل عما هو معلوم ؛ أو تتحدث عن المعرفة بالنكرة ، أو تتردد بين أمرين فى شئ وأنت تعلم أنه لأحدهما.

وإذا كان هذا خلافا للأصول المقررة فإنه لابد فيه من نكته تجعل الصيرورة إليه ، وترك الأصل هى الأولى بالاعتبار[1]

وتسمية هذا المحسن : "سوق المعلوم سوق غيره" منسوبة إلى أبى يعقوب يوسف السكاكى .

وقد بين السبب بقولـه : "لا أحب تسميته بالتجاهل"[2] وذلك لورودأمثـلة منه فى القرآن الكريم ، وإنما اللائق هو ما أثبته ، وهو" سوق المعلوم مساق غيره " كما سمى البلاغيون" أسلوب الحكيم " بدلا من " المغالطة " التى سماها عبد القاهر الجرجانى ، فتسمية السكاكى بهذا الاعتبار أولى وأحسن .

والأسرار البلاغية لهذا المحسن كثيرة ، و[illegible] أشهرها :

١ - التوبيخ كما فى قول الخارجية : ليلى بنت طريف الشيبانى ترثى أخاها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا
كأنك لم تجزع على ابن طريف

المورق : ما كان ذا ورق ناضر . الخابور نهر بديار بكر .

---

١ – البديع من المعانى والألفاظ : ٦٩

٢ – مفتاح العلوم : ٤٢٧

فالشاعرة تعلم أن الشجر لا يجزع ، إذ لا إدراك له ، ولكنها تجاهلت ذلك ووبخته على عدم الجزع . ومعنى ذلك عظم المصيبة بقتل أخيها أى : فكأن من يدرك أولى بهذا الجزع .

٢ ـ المبالغة فى المدح كما فى قول البحترى :

ألمع برق سرى أم ضوء مصباح
أم ابتسامتها بالمنظر الضاحى

برق سرى : أى ظهر ليلا . المنظر الضاحى : الوجه الظاهر[1]

فالبحترى يعلم أن الذى ظهر ابتسامتها ، وللمبالغة فى مدحها تجاهل ذلك على سبيل الشك ؛ لإفادة أنها بلغت فى الحسن مبلغا يحصل معه اللبس [2]

ـ أو المبالغة فى الذم ومثاله قول زهير :

وما أدرى ولست إخال أدرى   أقوم آل حصن أم نساء

إخال : أى أظن . وسوف إخال أدرى : جملة معترضة بين " أدرى " ومعمولاها . المراد بالقوم هنا : الرجال .

أراد زهير ذم هؤلاء الرجال فتجاهل فى أنهم رجال أم نساء وذلك لإفادة أنهم بلغوا من الضعف مبلغا جعل أمرهم يلتبس عليه .

٣ ـ التدله فى الحب كقول الشاعر :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا   ليلاى منكن أم ليلى من البشر

نزّل الشاعر نفسه منزل من يجهل " ليلى " فهو يعلم أنها من البشر ، ولذا وجه سؤاله إلى ظبيات القاع رجاء أن تخبره عن حال ليلى . أهى منهن أم من البشر .

---

١ – مفتاح العلوم : ٤٢٧

٢ – انظر : بغية الإيضاح : ٦٧٤

وبذلك أظهر تحيره فهذا الحب تمكن منه وحيره فأصبح لا يدرى حقيقة ليلى . وفى البيت تشبيه ضمنى ؛ لأنه جاء على غير الصورة المعهودة للتشبيه .

٤ - إظهار الشكوى كقول الشاعر :

أقول وقد ناحت بقربى حمامة
أيا جارتا لو تشعرين بحالى

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
تعالى أقاسمك الهموم تعالى

فالحمامة لا تفهم ما يقول الشاعر ، ولكنه تجاهل ذلك ، فبثها شكواه ليسرى عن نفسه بإظهار هذه الشكوى ولو إلى من لا يعقل .

٥ - التعريض فى قوله تعالى : "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين"(1)

يقول الخطيب : وفى مجئ هذا اللفظ فائدة أخرى ، وهى أنه يبعث المشركين على الفكر فى حال أنفسهم وحال النبى - ﷺ - والمؤمنين . وإذا فكروا فيما هم عليه من إغارات بعضهم على بعض ، وسبى ذراريهم واستباحة أموالهم ، وقطع الأرحام ، وإتيان الفروج الحرام ، وقتل النفوس التى حرم الله قتلها ، وشرب الخمر التى تذهب العقول ، وتحسن ارتكاب الفواحش ، وفكروا فيما النبى - ﷺ - والمؤمنون عليه من صلة الأرحام ، واجتناب الآثام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإطعام المساكين وبر الوالدين ، والمواظبة على عبادة الله - تعالى - علموا أن النبى - ﷺ - والمسلمين

---

1 - سورة سبأ : ٢٤

على هدى وأنهم على الضلالة ،فبعثهم ذلك على الإسلام. وهذه فائدة عظيمة([1])

٦ ـ التحقير كما فى قولـه تعالى فى حق النبى ـ ﷺ ـ حكاية عن الكفار " هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد "([2])

يقول الشهاب الخفاجى : وتنكير " رجل " لتنزيلهم قائله منزلة من لا يعرف حتى كأنه رجل غريب ، يحدثهم بما يحكى للهزؤ والسخرية ، ولذا قالوا استهزاءً وتهكمًا : "هل ندلكم" ؛ لكونه لا يعبأ به مجهول المكان ، محتاج لدلالة دليل عليه([3])

وقال تعالى على سبيل التوبيخ والتبكيت لمن لم يؤمن من أقوام الرسل : " يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب "([4])

قولـه عز وجل " ماذا أجبتم " للرسل تذكير لمن أشرك من أممهم بسوء معاملة الرسل فى الدنيا ، وبيان أن لا عذر لهم فى تلك المخالفة ؛ فيستولى عليهم من الدهشة والحيرة ما يقطع قلوبهم فيكون لهم هذا من العقاب النفسى وفيه من الإيلام ما فيه .

---

[1] – الإيضاح : ٤ / ٦٨

[2] – سورة سبأ : ٧

[3] – حاشية الشهاب الخفاجى : ٧ / ١٩١

[4] – سورة المائدة : ١٠٩

ثــانيـــــًا :

المحسنــات اللفظيــة

الجناس من الحلى اللفظية التى لها تأثير بليغ ، فهو يجذب السامع ، ويحدث فى نفسه ميلا إلى الإصغاء والتلذذ بنغمته العذبة ، وتجعل العبارة على الأذن سهلة ومستساغة ؛ فتجد من النفس القبول ، وتتأثر به أى تأثير ، وتقع من القلب أحسن موقع ([1])

وقد اختلف العلماء فى منزلته :

١ - فالإمام يحيى بن حمزة العلوى يرى أنه : من ألطف مجارى الكلام ، ومن محاسن مداخله ، وهو من الكلام كالغُرَّة فى وجه الفرس ([2])

٢ - وذهب ابن حجة إلى أن الجناس " يؤدى إلى العقادة ، والتقليد عن إطلاق عنان البلاغة فى مضمار المعانى المبتكرة ([3])

٣ - وكان لكل من ابن سنان الخفاجى ، وعبد القاهر الجرجانى القول الفصل فى هذا الأمر .

فالخفاجى يستحسن الجناس " إذا كان قليلا ، غير متكلف ، ولا مقصودا فى نفسه " ([4]) فالجناس يحسن إذا ورد مطبوعا ، و دى إليه المعنى دون تكلف وتصنع ، وقد قال ابن الوردى فى هذا المعنى ([5]) :

إذا أحببت نظم الشعر فاختر لنظمك كل سهل ذى امتناع
ولا تقصد مجانسةً ومكّن قوافيه وكِلْهُ إلى الطّباع

[1] - البديع فى ضوء أساليب القرآن : ١٥٥
[2] - الطراز : ٣ / ٣٥٥
[3] - خزانة الأدب : ١ / ٥٤
[4] - سر الفصاحة : ١٨٥
[5] - البلاغة العربية فى ثوبها الجديد . علم البديع : ١٣٣

فمراعاة المعنى هو الغرض من الكلام . فإن حصل بعد جناس أو غيره من ألوان البديع - فبها ونعمت - وإلا كان التكلف والاستهجان .

يقول عبد القاهر : "أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا جميلا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ... فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلا مستحسن ، وما وجد فيه معيب مستهجن ، ولذلك ذُمَّ الإكثار منه ، والولوع به .

وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه . ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وذلك مثل قول الشافعى وقد سئل عن النبيذ فقال : " أجمع أهل الحرمين على تحريمه " وقول البحترى :

يعشى عن المجد الغبىّ ولن ترى
فى سؤدد أربا لغير أريب

وإن أنت تتبَّعتهُ من الأثر وكلام النبى - ﷺ - تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التى قدمت . وذلك كقول النبى - ﷺ - : "الظلم ظلمات يوم القيامة" ([1])

فأنت لا تجد فى جميع ما ذكرت لفظا اجتلبت من أجل السجع. ([2])

هذه إشارة إلى آراء العلماء فى الجناس .

تعريف الجناس : والجناس يسمى : "التجانس" و" المجانسة " و" التجنيس " وهى ألفاظ مشتقة من الجنس .

---

[1] - صحيح البخارى : ٢ / ٨٦٤ ، صحيح مسلم : ٤ / ١٩٩٦ ، سنن الترمذى : ٤ / ٣٧٧ ، صحيح ابن حبان : ١١ / ٥٧٩

[2] - أسرار البلاغة : ١ / ١٠٢

وسماه قدامة بن جعفر " الطباق " وسبقه ابن المعتز بتسميته: المطابق .
وهذا مخالف لمفهوم الجناس عند علماء البلاغة ؛ ولذا لم يقل غيرهما بذلك.

والجناس عند علماء البلاغة : هو تشابه اللفظين فى النطق مع اختلافهما فى المعنى .
وقال سعد الدين : " هو تشابههما فى اللفظ ، واختلاف المعنى ؛ أى فى التلفظ والنطق ؛ فيخرج التشابه فى المعنى نحو : أسد وسبع ..." ([1])
والجناس قسمان :
١ ـ جناس تام   ٢ ـ جناس ناقص
وإليك البيان :

أولاً : الجناس التام :
وهو أن يتفق اللفظان فى أنواع الحروف ، وأعدادها ، وهيئاتها ، وترتيبها . فإن كان اللفظان من نوع واحد سمى : الجناس المماثل ، وإن كانا من نوعين مختلفين سمى : الجناس المستوفى .
فمن أمثلة الجناس المماثل قوله تعالى : " ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة " ([2]) الساعة : مراد بها يوم القيامة ، وساعة : مراد بها مقدار ساعة زمنية . وهما اسمان .
وقال تعالى : " يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار "([3])

[1] – عروس الأفراح : ٤ / ٤١٣ ضمن (شروح التلخيص)
[2] – سورة الروم : ٥٥
[3] – سورة النور :٤٣ – ٤٤

الأبصار الأولى جمع بصر بمعنى : النظر ، وأما الثانية فهى بمعنى العقل .

وقال الشاعر :

يا أخوتى مذ بانت النُّجبُ وجب الفؤادُ وكان لا يجبُ

فارقتكم وبقيــت بعــدكـمُ مـا هكذا الـذى كـان يجـبُ

" يجب " الأولى معناها . يحفق ، وأما الثانية فمعناها : الوجوب ، وقال الشاعر :

لم يُبق غيرك إنسانا نلوذُ فلا برحْتَ لعين الدهر إنسانا

فى الشطر الأول : "إنسانا " بمعنى : آدمى ، وهى فى الشطر الثانى بمعنى : سواد العين .

وقال آخر :

وأقطع الهوجَلَ مستأنِسًا بهـوجـل عيـرانـة عنتـريس

" هوجل " الأولى بمعنى الطريق البعيد ، والثانية بمعنى : الناقة السريعة .

ومثاله بين حرفين : قد ينزل المطر شتاء ، وقد ينزل المطر صيفا . " قد " الأولى للتكثير ، وأما الثانية فهى للتقليل.

الجناس المستوفى :

وهو أن يكون طرفاه مختلفين : اسم فعل ، واسم وحرف ، ومن أمثلته قول أبى تمام :

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله

قولـه : كرم الزمان . أى كرم أهله . مجاز عقلى ، و " يحيا " فعل ، وقوله : " يحيى " اسم .

ومثله قول آخر :

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن إلـى ردِّ أمـــر الله سبيــلُ

وقال الشاعر :

علا نجمه فى عالم الشعر فجأةً
على أنه مازال فى الشعر شاديا

" علا " فعل ومعناه : ارتفع ، و" على " حرف .

وقال آخر :

ولو أن وصلا علّلوه بقربه
لما أنّمن حمل الصبابة والجوى

" أنَّ " الأولى حرف ، " أنَّ " الثانية فعل من الأنين والتعب.

جناس التركيب :

وهو أن يكون كل من لفظية مركبا ، إما من كلمتين مستقلين ، أو كلمة وجزء كلمة ، أو جزئى كلمتين ([1])

وهو ثلاثة أنواع :

١ - **المتشابه :** وهو أن تكون الكلمة المركبة وغير المركبة متفقتين لفظا وخطا ومثاله قول أبى الفتح البستى :

إذا ملك لم يكن ذاهبه فدعه فدولته ذاهبه

" ذاهبه " الأولى معناها : ذا عطية وهبة . فهى مركبة من كلمتين ، و" ذاهبه " الثانية كلمة واحدة بمعنى : زائلة .

وقال ابن معصوم :

قف طالبًا فضل الإله وسائِلاً
واجعل فواصله إليه وسائلا

" وسائلاً " الأولى مركبة من " واو " العطف ، واسم فاعل من السؤال . و " سائلا " الثانية معناها : الأسباب . والتشابه بين الكلمتين لفظا وخطا ، والمعنى مختلف .

٢ - **المفروق :** وهو ما تشابه ركنا الجناس لفظًا لا خطا ؛ كقول أبى الفتح ([1]) :

---

[1] - دراسات فى علم البديع : ٢٤

كلكم قد أخذ الجـــا م ولا جام لنـــــا
ما الذى ضرَّ م مدير الـ جـام لوجا ملنـــَا
الجام : الكأس . وجاملنا من المجاملة . والجناس بين : جام لنا ، جاملنا .

وقيل :

لا خير فى العلم إذا لم يكن حـظ من الـمـال أو الجـاه لـى
والعـلـم إن لـم أك ذا ثـروة أنـزلـنى منـزلة الجاهـــــل
قولـه : " الجاه لى " معناها : المنزلة لى ، و " الجاهل " ضد العالم.

وقال آخر :

لا تعـرضَـنَّ علـى الـرُّوَاةِ قصيـدةً مـا لـم تبالـغ قبل فـى تهـذيبـهـا
فمتى عرضت الشعر غير مهذبٍ عـدّوه منـك وسـاوسًا تهـذى بهـا
الجناس بين : " تهذيبها " بمعنى تجويدها ، و " تهذى بها " الثانية من الهذيان .

٣ ـ المرفوّ : وهو ما كان أحد ركنيه كلمة مستقلة ، والثانى مركبا من كلمة وبعض كلمة وهذا النوع فيه تكلف ظاهر .

ومثاله قول الحريرى :

ولا تلـهُ عن تـَذكـار ذنبك وابـكـه بـدمـع يُحـاكـى الوبْل حـال مصـابـه
ومثـل لعيْنيـك الحِمـــامَ ووقعـــهِ وروعـــة ملقـاه ومطعـم صـــابـه
الكلمة الأولى : مصابه ، والثانية : مركبة من حرف وكلمة : " م ، صابه".

---

[١] - الإيضاح : ٤ / ٧٩

ثانيا : الجنــاس غيـر التــام :
وهو ما اختلف فيه اللفظان فى نوع الحروف أو عددها ، أو هيئتها ، أو ترتيبها - فهو عكس الجناس التام وبيانه الآتى :
أولاً : الاختلاف فى نوع الحروف : ويشترط أن لا يكون الاختلاف بأكثر من حرف ، وهو نوعان :
١ - مضارع : وذلك إذا كان الحرفان المختلفان بينهما تقارب فى المخرج .
- ويكون ذلك إما فى الأول كقول الحريرى : " بينى وبين كِنِىِّ ليل دامس ، وطريق طامس " فالدال والطاء فى : دامس ، وطامس متقاربان فى المخرج وهو طرف اللسان .
- وإما فى الوسط كما فى قولـه تعالى : " وهم ينهون عنه وينأون عنه " ([1]) الهاء فى " ينهون " والهمزة فى " ينأون" من حروف الحلق .
- وإما فى الآخر كما فى قولـه - ﷺ - " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " : الاختلاف بين اللام من " الخيل " والراء من " الخير " .
٢ - لاحق : وذلك إذا كان الاختلاف بين حرفين متباعدين فى المخرج . وهو إما فى الأول فى قولـه تعالى : " ويل لكل همزة لمزة " ([2])
الهاء واللام من " همزة " ، و" لمزة " متباعدتان . وذلك أن الأولى من حروف الحلق ، والثانية من الحروف اللسانية .
وقال الحريرى : " لا أعطى زمامى لمن يخفر ذمامى " .
- وإما فى الوسط كما فى قولـه تعالى : " وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد " ([3])

---

[1] – سورة الأنعام : ٢٦
[2] – سورة الهمزة : ١
[3] – سورة العاديات : ٦ ، ٧

الهاء من " لشهيد " من حروف الحلق والدال من " لشديد " من الحروف اللسانية .
وقال سبحانه : " ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون " ([1])
وقال البحترى :
هل لما فات من تلاقٍ تلافِى
أم لشاك من الصبابة شافِى
الجناس بين : " تلاق " ، و " تلافى " ولا شك أن ثمة تباعد بين القاف ، والفاء .

ثانيا : الاختلاف فى عدد الحروف : ويسمى هذا النوع : " الجناس الناقص" وهو نوعان :
١ - أن يختلفا بزيادة حرف واحد فى الأول كما فى قوله تعالى ([2]) :"والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذٍ المساق".
فى كلمة : " المساق " زيادة الميم عن " الساق " .
وقال - ﷺ - : " الإيمان يمانٌ والحكمة يمانية " الجناس بين كلمتى " إيمان " ، " يمان " .
- وإما فى الوسط كقولهم : جدِّى جهدى - يعنى أن حظى فى الدنيا على قدر المشقة فيها .
وقال - ﷺ - : " ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء " الجناس بين : " داء " ، و" دواء " .
- وإما فى الآخر كما فى قول أبى تمام :
يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصمِ
تصولُ بأسياف قواضٍ قواضبِ

---

[1] – سورة غافر : ٧٥
[2] – سورة القيامة : ٢٩ ، ٣٠

الجناس بين : عواص ، وعواصم ، وكذا بين : قواض ، وقواضب .
وقال البحترى :
لئن صدفْت عنَّا فرُبَّت أنفس
صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

قال الخطيب : وربما يسمى هذا القسم ([1]) مطرفا . ووجه حسنه : أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من "عواصم" أنها هى التى مضت ، وإنما أتى بها للتأكيد حتى إذا تمكن آخرها فى نفسك ، ووعاه سمعك انصرف عنك ذلك التوهم .
وفى هذا حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها "([2])

٢ ـ أن يكون الاختلاف بزيادة أكثر من حرف ؛ كما فى قول الشاعر :
إن البكاء هو الشفـــــــا ء من الجوى بين الجوانح
الجوى : حرقة القلب . والجوانح : الضلوع . والزيادة هنا حرفان ، وقال حسان ـ ﷺ ـ :
وكنا متى يغز النبى قبيلة نصل جانبيه بالقنا والقنابل
وهذا الضرب يسمى : مذيَّلا .

ثالثا : الاختلاف فى هيئة الحروف . وهو نوعان :
١ ـ محرف : وهو ما كان الاختلاف فيه بين اللفظين فى الحركة والسكون ومثاله قولهم : جُبَّة البُرد جُنَّه البَردِ " ،

[1] ـ أى ما تكون الزيادة فيه الحرف الأخير فقط كما فـــى : عـــواص ، وعواصم
[2] ـ الإيضاح : ٤ / ٨٢

الجناس بين البُرد ، والبَرد وقولهم " البدعة شركُ الشّرْك " الجناس بين شرك ، والشرك .

وقال أبو العلاء :

والحسن يظهر في شيئين رونقه
بيت من الشِّعر أو بيت من الشَّعَر

وجعل من أمثلته اختلاف الحروف في التخفيف والتشديد ، كقولهم : الجاهل إما مفْرط أو مفَرِّط . الأولى من الإفراط وهو مجاوزة الحد ، والثاني من التفريط وهو : التقصير .

٢ ـ المصحف : وهو ما كان الاختلاف فيه بين اللفظين في نقط الحروف.

ومثاله قول رسول الله ـ ﷺ ـ : " يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا " فالاختلاف بين : " يسروا وبشروا " .

ومنه قول الشاعر :

من بحر جودك اغترف   وبفيض علمك اعترف

الجناس بين : اغترف ، واعترف .

رابعا : الاختلاف في ترتيب الحروف . قال الخطيب (١) :

وإن اختلفا في ترتيب الحروف سمي : جناس القلب وهو ضربان :

ـ قلب الكل . كقولهم : " حسامَه فتح لأوليائه حتف لأعدائه " ، ومنه قوله تعالى في الكتاب العزيز : "كلٌ في فلكٍ يسبحون " (٢) ، وقوله سبحانه " وربك فكبر" (٣)

والسكاكي سمى هذا النوع "المقلوب المستوى" .

١ – الإيضاح : ٤ / ٨٤
٢ – سورة يس : ٤٠
٣ – سورة المدثر : ٣

ـ وقلب البعض . كما جاء فى الخبر : " اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا " .
الجناس بين : " عوراتنا " ، و " روعاتنا " .
وعليه قول أبى الطيب :
ممتعة منعمة رداحُ   يكلفُ لفظُها الطيرَ الوقوعَا
الاختلاف بين : " ممتعة " ، و " منعمة " .

ومن الجناس ما يسمى :
١ ـ الجناس المقلوب المجنح : وهو أن يقع أحد المتجانسين جناس القلب فى أول البيت ، والآخر فى آخره . ومن أمثلته قول الشاعر :
لاح أنوار الهدى من   كفه فى كل حال

الجناس بين : " لاح " ، و " حال " وفيه تكلف وصنعة .

٢ ـ والجناس المزدوج : وذلك إذا ولى أحد المتجانسين الآخر فإنه يسمى : مزدوجا ومكررا ومرددا .
ومن أمثلته قوله تعالى : " وجئتك من سبأ بنبأ يقين " (١)
وفى الخبر : " المؤمنون هيّنون ليّنون " (٢)
وقال الشاعر :
يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصم
تصول بأسيافٍ قواضٍ قواضب

ويلحق بالجناس شيئان :
الأول : أن يجمع اللفظين الاشتقاق . وهو " توافق الكلمتين فى الحروف والأصول مع الاتفاق فى أصل المعنى " (٣)

---
١ – سورة النمل : ٢٢
٢ – الإيضاح : ٤ / ٨٤
٣ – المختصر : ٣ / ١٢٠

ومن أمثلته قوله تعالى : " فأقم وجهك للدين القيم " ([1]) بين " أقم " ، و" القيم " تشابها فى الاشتقاق . وذلك أن ترتيب الحروف والهيئة فيهما متفقة .
وقال تعالى : " فروحٌ وريحان " ([2])
وقال النبى - ﷺ - : " الظلم ظلمات يوم القيامة " ([3]) ومن أمثلته أيضا عند الخطيب قول الشافعى وقد سئل عن النبيذ: " أجمع أهل الحرمين على تحريمه " ([4])

وهذا النوع الملحق بالجناس عند الخطيب ومدرسته جعله الشيخ عبد القاهر من الجناس ؛ فقال :
" وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ، ولا مسجوعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى واستدعاه وساق نحوه .... وذلك كما يمثلون به أبدا من قول الشافعى - رحمة الله تعالى - وقد سئل عن النبيذ فقال : " أجمع أهل الحرمين على تحريمه " ومما تجده كذلك قول البحترى :

يعشى عن المجد الغبىّ ولن ترى
فى سؤدد أربا لغير أريبِ " ([5])

الثانى : أن يجمعهما المشابهة . وهو ما يشبه للاشتقاق وليس به كقوله تعالى : " أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة " ([6])

---

[1] - سورة الروم : ٤٣
[2] - سورة الواقعة : ٨٩
[3] - صحيح البخارى : ٢ / ٨٦٤ ، صحيح مسلم : ٤ / ١٩٩٦ ، سنن الترمذى : ٤ / ٣٧٧ ، صحيح ابن حبان : ١١/ ٥٧٩
[4] - الإيضاح : ٤ / ٨٥
[5] - ألوان من البديع : ٢٣٢ ، وأسرار البلاغة : ١ / ١٠٢
[6] - سورة التوبة : ٣٨

الجناس بين : أرضيتم ، والأرض .
وقال تعالى : " وجنى الجنتين دان " ([1]) . الجناس بين : جنى ، والجنتين .
والمثالان من جناس الاشتقاق . ولعل هذا سهو من الخطيب .
يقول الدكتور المطعنى : " وهذا النوع أدخل فى باب الجناس الاصطلاحى من جناس الاشتقاق ، للتقارب فى اللفظ مع الاختلاف فى المعنى وهما مبنى الجناس كما تعلم " .

بلاغة الجناس :

عرفت أن الصور البديعية ومنها الجناس لا تكون مقبولة إلا إذا وردت عفو الخاطر وفيض البديهة . وكانت فى كلام مطبوع ، لا تصنع فيه ولا تكلف . ولم تكن من الكثرة التى تثقل كاهل المعنى ، وتجعله يضيع فى سراديب الصنعة .
والجناس يضفى على الأسلوب سحرا وقبولا ويجعل النفس تتشوف إليه ، وتتبين المراد به ؛ فاللفظ الدال على معنى إذا كرر تطلعت النفس إلى معناه ؛ فتكون المفاجأة بمعنى آخر وهذا من سحر القول ، ومهارة القائل .
وقد بين عبد القاهر ـ فى إيجاز ـ فائدة الجناس وهى :
" حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة " .

[1] – سورة الرحمن : ٥٤

رد العجز على الصدر

- وهو فى النثر : أن يجعل أحد اللفظين المكررين ، أو المتجانسين ، أو الملتحقون بهما فى أول الفقرة والآخر فى آخرها .
ومن أمثلته فى النثر قوله تعالى : " وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه " ([1]) وقولهم : الحيلةُ ترك الحيلةِ " وقولهم : " سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل " .
هذه الأمثلة من رد العجز على الصدر فى المكررين .
ومثاله فى المتجانسين قولـه تعالى : " استغفروا ربكم إنه كان غفارا " ([2]) قولـه : " استغفروا " ، و " غفارا " من مادة " غفر " ، ومثاله فى الأخير قولـه تعالى : " قال إنى لعملكم من القالين " ([3])

- وأما فى الشعر فهو : أن يكون أحدهما فى آخر البيت ، والآخر فى صدر المصراع الأول ، أو حشوه ، أو آخره ، أو صدر الثانى .

فمثال الأول قول الشاعر :
سريع إلى ابن العم يلطم وجهه
وليس إلى داعى النّدى بسريع

وقال الإمام الشافعى :
مشيناها خُطًى كتبت علينا
ومن كُتبت عليه خُطى مشاها

---
[1] - سورة الأحزاب : ٣٧
[2] - سورة نوح : ١٠
[3] - سورة الشعراء : ١٦٨

وقال آخر :

سُكْرَان ؛ سُكر هوى وسكر مدامة
أنَّى يفيق فتى به سُكــــــــران

ومثال الثانى قول الحماسى :

تمتع من شميم عَرار نجد
فما بعد العشية من عــــــرار

ومثال الثالث :

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وقال جرير :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعًا
أبشر بطول ســـــلامة يا مربع

وقال أبو تمام :

ومن كان بالبيض الكواعب مغرما
فما زلتُ بالبيض القواضب مغرما

ومثال الرابع قول الشاعر :

ناظراه فيما جنى ناظراه
أو دعانى أمت بما دعـــــانى

وقال أبو تمام :

وقد كانت البيض القواضب فى الو ى
بواتر فهى الآن من بعــــــــدهُ بترُ

وقال آخر :

وإن لم يكن إلا معرج ساعة
قليلا فإنى نافع لى قليلها

بلاغة رد الأعجاز على الصدور :

فى هذا المحسن البديعى تأكيد المعنى وتقريره وذلك بإعادة اللفظ مرة ثانية . ثم الارتباط بين أجزاء الكلام ، وذلك بدلالة آخره على أوله وهذا من بديع النظم .

السجع

السجع من الفنون التى حفل بها الأسلوب ، وهو يعتمد على توافق الإيقاع والتلاؤم والإستواء والمشابهة .
قال ابن منظور : " سجعَ يسجَعُ سجْعًا : استوى واستقام وأشبه بعضه بعضا . والسجع فى الكلام المُقفّى.
وكلام مُسجَّع وسجَع سَجْعُ سجْعًا : تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن .. وسجع الحمامُ يسجعُ سجْعًا: تدل على جهة واحدة .
تقول العرب : سجعت الحمامة : إذا دعت وطرّبت فى صوتها " ([1]) .

والسجع عند علماء البلاغة هو : تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد . وهذا معنى قول السكاكى : " الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر " .
والفاصلة هى الكلمة الأخيرة من الفقرة . ففى قول الحريرى " فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه " . والفاصلة هى : " لفظة " , " وعظه " .
وهذه مصطلحات يجب معرفتها :
١ - القرينة أو الفقرة : هى الجملة الأولى ، وكذا الجملة الثانية التى تم بينهما المزاوجة والسجع .
٢ - الفاصلة : هى الكلمة الأخيرة فى القرينة .
٣ - الروىّ : هو الحرف الأخير فى الفاصلة ، وهذا الحرف يشبه حرف الرَّوىِّ فى القصيدة . وهو الحرف الذى تُبنى عليه القصيدة وتنسب إليه ، فيقال : قصيدة همزية ، أو ميمية ...... إلخ .

---

[1] - مادة (سجع) اللسان

٤ ـ التقفيه : هى اتفاق الفاصلتين أو أكثر فى الحرف الأخير ؛ ففى نحو : " ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هو آت " نجد أن كل جملة من هاتين الجملتين تسمى : قرينة أو فقرة ، وكلمة " فات " تسمى فاصلة ، وكذا " آت " ، والرَّوىِّ : هو حرف التاء فيهما .

ومن أمثلة السجع ما جاء فى الحديث الشريف "عن عبدالله ابن سلام ؛ قال : قدم رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة ؛ فجئت فى الناس لأنظر إليه ، فلما استثبت وجه رسول الله ـ ﷺ ـ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب وكان أول شئ تكلم به أن قال : " أيها الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام " ([1])

وقال الفضل بن عيسى : "سل الأرض : من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا" .

ومعنى اجابتك أن حال الأرض يدل على الله الواحد الموجد ، وقد حفل هذا القول بالسجع المطبوع ذى العبارة السهلة والمعانى المتلائمة .

أضراب السجع :

١ ـ السجع المطرَّف : هو ما اختلفت فيه الفاصلتان فى الوزن واتفقت فى الرَّوىِّ ، ومن أمثلته قوله تعالى : " ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا " ([2])

فوزن " وقارا " يختلف عن وزن " أطوارا " ولكن الرَّوىِّ واحد ، وهو حرف الراء .

---

[1] – سنن الترمذى : ٤ / ٦٥٢ ، وسنن ابن ماجه : ١ / ٢٤٣ ، والمثل السائر : ٣ / ٢٧٢

[2] – سورة نوح : ١٣ ، ١٤

٢ - السجع المرصع : وهو اتفاق القرينتين فى الألفاظ أو أكثرها وزنا وتقفية . ومثاله قوله تعالى : " إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم " [1]

وقال تعالى : " إنا إلينا إيابهم . ثم إنا علينا حسابهم " [2]
فإننا نجد : " الأبرار " ، و" الفجار" ، وكذا : " إيابهم " ، و " حسابهم " كل منهما اشترك فى الوزن والتقفية وألفاظ القرينتين تكاد تتفق فى العدد ، وكذا قول الحريرى السابق .

وقال أبو الفضل الهمذانى : " إن بعد الكدر صفوا ، وبعد المطر صحوا " .

٣ - السجع المتوازى : وهوأن تتفق الفاصلتان فى الوزن والتقفية ؛ ومثاله قوله تعالى : " فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة " [3] فالاتفاق بين : " مرفوعة " و " موضوعة " .

وقال رسول الله - ﷺ - : " اللهم إنى أدرأ بك فى نحورهم ، وأعوذ بك من شرورهم " فالاتفاق فى كل من : " نحورهم " و" شرورهم " وذلك من حيث الوزن والتقفية .

شروط حسن السجع :

قال الخطيب : وشرط حسن السجع اختلاف قرينتيه فى المعنى كما مر ، كقول عبَّاد فى مهزومين : " طاروا واقين بظهورهم صدورهم ، وبأصلابهم نحورهم " .

والمراد : أن تكون الجملة الثانية مخالفة للأولى فى المعنى . ولكن فى كلام ابن عبَّاد الجملة الثانية هى معنى الأولى ،

---

[1] – سورة الإنفطار : ١٣ ، ١٤
[2] – سورة الغاشية : ٢٥ ، ٢٦
[3] – سورة الغاشية : ١٣ ، ١٤

فانتفى شرط حسن السجع. ومنه أيضا أن تكون الألفاظ تابعة للمعانى دون تكلف .

سكون الحرف الأخير من الفواصل :

قال الخطيب : اعلم أن فواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأشجار موقوفا عليها ؛ لأن الغرض أن يزاوج بينها . ولا يتم ذلك فى كل صورة إلا بالوقف . ألا ترى أنك لو وصلت قولهم : " ما أبعد ما فاتَ ، وما أقرب ما هو آت " لم يكن بدٌّ من إجراء كل من الفاصلتين على ما يقتضيه حكم الإعراب ، فيفوت الغرض من السجع " .

والمعنى أن السجع يفوت عند الوصل . لأن الفعل : " فات " سيكون مبنيا على الفتح ، وكلمة " آت " ستكون حركتها التنوين بالكسر .

مذاهب العلماء فى السجع :

أشار ابن سنان الخفاجى إلى مذاهب العلماء فيه وبين المذهب الصحيح بقوله :

" بعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج فى الكلام ، وبعضهم يستحسنه ، ويقصده كثيرا " .

وحجة من يكرهه : أنه ربما وقع بتكلف وتعمل واستكراه ؛ فأذهب طُلاة الكلام ، وأزال ماءه .

ومثاله أن النبى ﷺ أمر فى دية الجنين بغرة عبد أو أمة ، فقال الرجل : أأدى من لا شرب ، ولا أكل ، ولا نطق ، ولا استهل ؟! ومثل يُطل . فقال رسول الله ﷺ : " أسجعا كسجع الكهان "(1) فالمكروه من السجع ما كان بتكلف ، والمثل فى ذلك : سجع الكهان ، فهو بعيد عن البلاغة ، وقائله يلجأ إلى السجع من أجل تعمية المعنى ، وصرف انتباه السامع ،

---

1 ـ أأدى : أأدفع دية ؟! . يُطل : يهدر دمه .

وتشتيت فكره بهذا الزخرف اللفظى ، وحل رموزه ؛ لأن العبارة تحتمل أكثر من معنى ، وهذا ما يعنيه الكهان فلا يتهمون بالكذب .

يقول ابن الأثير : " ولو كره النبى ﷺ السجع مطلقا لقال أسجعا ؟ ثم سكت . وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل . لم كان ؟ فلما قال : " أسجعا كسجع الكهان " صار المعنى معلقا على أمر ؛ وهو إنكار الفعل " وهو يقصد سجع الكهان .

وحجة من يختاره : أنه مناسبة بين الألفاظ يحسِّنُها ، ويُظهر آثار الصنعة فيها ، ولولا ذلك لم يرد فى كلام الله ، وكما أن الشعر يحسن بتساوى قوافيه ، كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف فى فصوله .

وقد استشهد أصحاب هذا الرأى بورود السجع فى القرآن الكريم ؛ ومن ذلك ما جاء أول سورة طه . قال تعالى :

"طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى * الرحمن على العرش استوى * له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسما الحسنى" .

وكذلك سورة القمر ، وسورة الرحمن ... ، كما ورد السجع فى كلام النبى ﷺ وقد مضى مثاله .

والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا متيسرا بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يُقصد فى نفسه ، ولا أحضره إلا صدق معناه ، دون موافقة لفظه ، ولا

يكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأجله ، وورد ليصير وصْله إليه .... ". ([1])

الخلاف فى إطلاق السجع فى القرآن الكريم :

ذهب بعض العلماء إلى تسمية الفواصل القرآنية بالفواصل ، ولم يسموها أسجاعا . فأبو الحسن الرمانى يقول : " إن الفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها ([2])

وأجاز الخفاجى ([3]) إطلاق " السجع فى القرآن الكريم ، لأنه لم يرد منه إلا السجع المحمود ، لعلوه فى الفصاحة ، ومما مثل به قوله تعالى : " والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور . والبيت المعمور " ([4]) وقوله سبحانه :" اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر " ([5])

وأقول : الأولى التعبير بالفواصل فى القرآن الكريم . وجعل السجع خاصا بالنثر العربى ، إذ السجع فى الأصل : هدير الحمام ([6])

وقيل : السجع غير مختص بالنثر ، فقد يأتى فى الشعر ، ومن أمثلته قول أبى تمام :

---

[1] - سر الفصاحة : ١٦٤ ، والمثل السائر ١ / ٢٧٣

[2] - النكت فى إعجاز القرآن : ٩٧ ضمن (ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن) .

[3] - سر الفصاحة : ١٦٦

[4] - سورة الطور : ١ ــ ٤

[5] - سورة القمر : ١ ــ ٢

[6] - مختار الصحاح (س ج ع)

تجلّى به رُشدى ، وأثرت به يدى
وفاض به ثِمدى ، وأورى به زندى

وقالت الخنساء :
حامى الحقيقة ، محمود الخليقة مهـ
ـــدى الطريقة ، نفّاعُ وضرّارُ

إلا أن هذا ظاهر التكلف ، وفيه إفراط فى الصنعة وتفكيك للنظم . ويبقى السجع مختصا بالنثر كما هو الأصل .

التشطير : هو أن يجعل كل من شطرى البيت سجعة مخالفة لاختها ، كقول أبى تمام :

تدبير معتصم ، بالله منتقم لله مرتغب ، فى الله مرتق([1])

وهو ناشئ مما ذهب إليه البعض من مجئ السجع فى الشعر كما سبق ، ولا يخلو من التكلف . ومن السجع على هذا :

التصريع : وهو جعل العروض مقفّاة تقفية الضرب كقول أبى فراس الحمدانى :

بأطراف المثقفةِ العوالى تفردنا بأوساط المعالى

العوالى : الرماح . فالتفقية - أو حرف الرّوىِّ هو اللام من " المعالى " وجعل كذلك فى " العوالى " .

وعلى هذا جاء قول امرئ القيس :
ألا عم صباحًا أيها الطلل البالى
وهل يَعمن من كان فى العُصُر الخالى

بلاغة السجع :

السجع يؤثر فى النفوس تأثير السحر ، ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم ، لما يحدثه من النغمة المؤثرة ، والموسيقى القوية التى تطرب لها الآذان ، وتهش لها النفس ، فتقبل على

---

[1] - الإيضاح : ٤ / ٩٨

السماع من غير أن يداخلها ملل أو يخالطها فتور ؛ فيتمكن المعنى فى الأذهان ، ويقر فى الأفكار ، ويعز لدى العقول ([1])

ولا يخفى أن السجع إذا اقتضاه الحال ، وورد سهلا غير متكلف كان له موضعه فى البلاغة .

الموازنة والمماثلة : وهى أن تكون الفاصلتان متساويتين فى الوزن دون التقفية كقولـه تعالى : " ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة " ([2]) فكل من : " نمارق " ، و" زرابى " وزنهما واحد ، وكذا " مصفوفة " ، و " مبثوثة" فهذه هى الموازنة .

وأما المماثلة : فهى أن يكون ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى فى الوزن كقولـه تعالى : " وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم " ([3]) تجد الوزن فى كلمتى : " الكتاب المستبين " مثله فى " الصراط المستقيم " وذلك مع اختلاف الحرف الأخير : الميم ، والنون فيهما .

وقال البحترى :

مها الوحش إلا أن هاتا أو أنس   قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

القلب : وهو أن يكون الكلام بحيث لو عكس كان عكسه هو ذلك الكلام بعينه ولا يخفى ما فيه من التكلف وما جاء منه فى القرآن فهو غير مقصود ، فلا يرد عليه ما يرد على من يتكلفه ([4])

---

[1] - الصبغ البديعى فى اللغة العربية : ٤٩٧

[2] - سورة الغاشية : ١٥ ، ١٦

[3] - سورة الصافات : ١١٧ ، ١١٨

[4] - بغية الإيضاح : ٤ / ١٠٠

ومن أمثلته قولهم : أرض خضراء . فحاصل قراءته من الآخر كقراءته من الأول .

وقال عماد الدين الكاتب للقاضى الفاضل : سِرُ فلا كبابك الفرس .

وقال القاضى الأرَّجانى :

مودته تدومُ لكل هـول ِ وهـل كلٌ مودته تدُومُ

فالشطر الثانى قلب لفظى للشطر الأول . وهذه ولا شك مهارة فى التعبير والنظم إلا أن ذلك تكلف ، وهو بعيد عن الطبع .

التشريع : هو بناء البيت على قافيتين ، يصح المعنى على كل واحدة منهما. ومثاله قول الحريرى :

يا خاطب الدنيا الدنيَّة إنها
شَرَك الرَّدى وقرارة الأكدار ِ

دارمتى أضحكت فى يومها
أبكت غَدًا تبًّا لها من دار ِ

فحرف الرَّوىِّ : الراء . ويجوز أن تجعل الأبيات من مجزوء الكامل وبقافية أخرى ؛ فيقال :

ياخاطب الدنيا الدَّنيَّة إنها شرك الـردَّى
دارَّمتى أضحكت فى يومها أبكت غدا

لزوم ما لا يلزم : وهو أن يجئ قبل حرف الرَّوىِّ أو ما فى معناه من الفاصلة ما ليس بلازم فى مذهب السجع .

ومثاله قول الشاعر :

سأشكر عمرا إن تراخت منيتى
أيادى لم تمنن وإن هى جلَّتِ

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه
ولا مظهرُ الشكوى إذا النَّعلُ زلَّتِ

فقد التزم الشاعر اللام المشددة ، والفتحة قبلها فى أكثر من بيت فى قصيدته.
وقد يكون ذلك فى النثر . كقول الحريرى : " وما اشتار العسل ، من اختار الكسل " حيث التزم اللام الساكنة والفتحة قبلها فى كل من : " العسل " ، و " الكسل " .

الملحق بالبديع

أولا : الأخذ أو السرقة*

فى بداية عهد التأليف تلطّف العلماء كثيرا فى التعبير عن السرقة الأدبية ؛ فعبروا عنها بالأخذ كما بينوا أحيانا فضل السابق فى اختراع المعنى ثم أخذ اللاحق له ، إما مع اللفظ أو بعضه .

ومن التعبير عن السرقة يقول حسان - رضى الله عنه - :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا

بل لا يوافق شعرهم شعرى

والسرقة لا تكون فى المعانى العامة المشتركة بين الناس كالوصف بالجود والحلم والذكاء ؛ فهذه المعانى "مطروحة فى الطريق . يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والقرشى"(1)

وإنما السرقة فى المعنى البديع المخترع الذى توفر صاحبه على إبداعه ، فإذا كان المعنى لا ينال إلا بفكر ، ولا يصل إليه كل أحد كالتشبيه الضمنى أو المجاز وكذا بالتصرف فى النظم .. فهذا الذى يجوز أن يدعى فيه الإختصاص والسبق ، وأن يقضى فيه بين القائلين بالتفاضل .

يقول القاضى الجرجانى : " والسَّرَق - أيدك الله - داء قديم ، وعيب عتيق . وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره

---

* ـــ يراجع : الشعر والشعراء : ١ / ١٤٤ ، ١٦١ ، ٢٦٣ ، ٤٤٣ ، والصناعتين : ٢٠٢ ـــ ٢٤١ ، والموازنة : ١٢٣ ، ١٣٣ ، والوساطة : ١٨٣ ـــ ٢٨٢ ، والمثل السائر : ٣ / ٢١٨ ـــ ٢٩٢

(1) - كتاب الحيوان للجاحظ : ٣ / ٤٠

ظاهرا ... ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب ، وتغيير المنهاج والترتيب " ([1])

والسرقة نوعان : ظاهرة ، وغير ظاهرة .

أقسام السرقة الظاهرة ([2]) :

الأول : النسخ أو الانتحال : وهو أن يؤخذ المعنى كله ، إما مع اللفظ كله أو بعضه ، وإما وحده .

فإن كان المأخوذ اللفظ كله من غير تغيير لنظمه فهو مذموم مردود ؛ لأنه سرقة محضة . ومن أمثلته قول امرئ القيس :

وقوفا بها صحبى علىَّ مطيّهمْ
يقولون : لا تهلك اسىً وتجمَّلِ

أخذه طرفه ؛ فقال :

وقوفا بها صحبى على مطيِّهم
يقولون : لا تهلك اسىً وتجلَّدِ

فغير الكلمة الأخيرة فقط .

ومن ذلك ما حُكى أن عبد الله بن الزبير دخل على معاوية ؛ فأنشده :

إذا أنت لم تُنصف أخاك وجدته
على طرف الهجران إن كان يعقلُ
ويركب حدّ السيف من أن تُضيمه
إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحلُ([3])

---

[1] - الوساطة : ٢١٤

[2] - اعتمدت على ما ذكره الخطيب فى هذه الأمثلة

[3] - المزحل : مصدر بمعنى الزحول . من زحل عن مكانه زحولا إذا تنحى وتباعد. والمعنى : أنه لا يبالى من أن يركب من الأمور ما يؤثر فيه تأثير السيف ، مخافة أن يدخل عليه ضم أو يلحق هضم متى لم يجد عن ركوبه مبعدًا ولا عدولا . معاهد التنصيص : ٤ / ٥

فقال له معاوية : لقد شعرت بعدى يا أبا بكر . ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل معْن بنُ أوسْ المُزنىِّ ، فأنشد كلمته التى أولها :

لعمرك ما أدرى وانى لاوجلُ   على أيِّنا تعدوَ المنية أول

حتى أتىعليها . وفيها ما أنشده عبد الله ؛ فأقبل معاوية على عبد الله وقال له : ألم تخبرنى أنهما لك ؟ فقال : المعنى لى واللفظ له . وبعد فهو أخى من الرضاعة وأنا أحق بشعره .

فالسرقة ظاهرة . والإعتذار منها لا يُنَّجى من اللوم .

وحكى صاحب الأغانى فى أصوات معبد :

لهْفى على فتيةٍ ذلَّ الزمانُ لهم   فما يصيبُهم إلا بما شاء وا

وفى شعر أبى نواس :

دارتْ على فتيةٍ ذَ ل الزمانُ لهم

فما تُصيبهم إلا بما شاء وا

فالمعنى واحد مع أخذ أكثر الألفاظ .

الثانى : الإغارة أو المسخ : هو أخذ اللفظ كله مع تغيير لنظمه ، أو أخذ بعض اللفظ .

فإن كان الثانى أبلغ من الأول ؛ لاختصاصه بفضيلة كحسن السبك ، أو الإختصار ، أو الإيضاح ، أو زيادة معنى فهو ممدوح مقبول ومثاله قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته

وفاز بالطيبات الفاتكُ اللَّهِجُ

مع قول سلْم الخاسر :

من راقب الناس مات غمَّـا   وفاز باللَّذةِ الجُسورُ

فبيت " سلْم " أجود سبْكا وأخصر .

ومن الأمثلة قول الآخر :

خلقنا لهم فى كل عيـــدٍ وحاجبٍ
بِسُمْرِ القنا والبيِض عينًا وحاجبًا

مع قول ابن نُباته :

خَلقنا بأطراف القنا فى ظهورهم
عيونًا لها وقْعُ السيوف حواجبُ

فبيت " ابن نُباته " أبلغ ؛ لاختصاصه بزيادة معنى ، وهو الاشارة إلى إنذارهم .

وإن كان البيت الثانى دون الأول فى البلاغة ؛ فهو مذموم ؛ كقول أبى تمام:

هيهات لا يأتى الزمانُ بمثله   إن الزمـــانَ بمثله لبخيلُ

مع قول أبى الطيب :

أعدى الزمانَ سخاؤُه فسخا به   ولقد يكون به الزمانُ بخيلا

فإن مصراع أبى تمام أحسن سبكا من مصراع أبى الطيب .

أراد أن يقول : كان الزمان به بخيلا ، فعدل عن الماضى إلى المضارع للوزن .

وإن كان - البيت - الثانى مثل الأول فالخطب فيه أهون . وصاحب الثانى أبعد من المذمة ، والفضل لصاحب الأول .

ومثاله قول بشار :

يا قوم أُذنى لبعض الحيِّ عاشقةٌ
والأُذْن تعشقُ قبل العين أحيانا

وقوا الآخر :

وإنى امرؤ أحببتكم لمكارمٍ
سمعتُ بها والأذْن كالعين تعشقُ

الثالث : الإلمام أو السلخ : وذلك إذا كان المأخوذ المعنى وحده ، وهو ثلاثة أقسام :

١ - أن يكون الثانى أبلغ من الأول ؛ ومن ذلك قول البحترى :

تصدّ حياءً أن تراك بأوجهٍ
أتى الذنب عاصيها فليم مطيعُها

وقول أبى الطيب :

وجُرمٍ جرَّهُ سفهاءُ قوم وحلَّ بغير جارمه العذابُ

فبيت أبى الطيب أحسن سبكا . وكأنه اقتبسه من قوله تعالى : " أتهلكنا بما فعل السفهاء منا " ([1]) .

ومن أمثلته قول الآخر :

ولست بنظار إلى جانب الغِنى
إذا كانت العلياءُ فى جانب الفقْرِ

وقول أبى تمام :

يصدّ عن الدنيا إذا عنّ سُؤدَدٌ
ولو برزتْ فى زىٍّ عذراءَ ناهدِ

فبيت أبى تمام أخصر وأبلغ ؛ لأن فى الشطر الثانى زيادة حسنه .

٢ - أن يكون الثانى دون الأول فى البلاغة . ومثاله قول الخنساء :

وما بلغ المهدُون للناس مِدحةً
وإن أطنبوا إلا وما فيك أفضلُ

وقول اشجع :

وما ترك المدَّاحُ فيك مقالةً ولا قال : إلا دون ما فيك قائلُ

فبيت الخنساء أحسن من بيت اشجع ؛ لأن فى مصراعه الثانى تعقيدا وتقديرالشطر الثانى : ولا قال قائل إلا دون ما فيك .

[1] - الأعراف : ١٥٥

٣ ـ أن يتساوى البيتان فى البلاغة . وذلك كقول الأعرابى :
ولم يكُ أكثر الفتيان مالا ولكن كان ارحبُهم ذِراعا
وقول اشجع :
وليس باوسعهم فى الغنى ولكن معروفه أوسعُ
قول الأعرابى : ولكن كان ارحبهم ذرعا " كناية عن الغنى" ، ولذا قيل : إن بيته أجود ؛ لدلالته على الكرم بطريق الكناية.

السرقة غير الظاهرة ؛ وهى أنواع :

ـ فمنها أن يتشابه معنى الأول ومعنى الثانى . ومثاله قول جرير :
فلا يمنعك من من أربٍ لِحاهُم سواءٌ ذ ُو العمامةِ والخِمارُ
وقول أبى الطيب :
ومن فى كفه منهم قناةٌ كمن فى كفه منهم خضابُ

فجرير يسوى بين الرجل والمرأة ؛ فلا يعرف فضل أحدهم على الآخر . وفى هذا ذم بليغ .

ـ ومنها القلب : أى أن يكون معنى الثانى نقيض معنى الأول.
قال أبو الشيص :
أجدُ الملامة فى هواكِ لذيذةً حبّـا لذكراك فليلُمنى اللّـومُ
وقال أبو الطيب :
أأحبُّـه وأحبّ ُ فيه ملامةً إن الملامة فيه من أعدائِـه
فالأول يستحسن الملامة فى هواها ثم إنه لا يهتم باللائمين ، وأما الثانى فإنه ينكر حبَّ صاحبه كما ينكر الملام فيه .

ثانيا : مواضع التأنق فى الكلام*

١ - حسن الابتداء
٢ - حسن التخلص
٣ - حسن الانتهاء .

ذكر العلماء أنه ينبغى للمتكلم أو الكاتب أن يتأنق فى ثلاثة مواضع : الابتداء وحسن التخلص ، وحسن الانتهاء وذلك ؛ بأن يكون الكلام أعذب لفظا وأحسن سبكا ، وأصح معنى مع مطابقته لمقتضى الحال كى يقع فى النفس موقعا حسنا . وإليك البيان .

أولاً : الابتداء :

وهو أول ما يقرع السمع ويطالعك من الكلام فإذا ما تأنق فيه صاحبه ، وبذل فيه من الرّوية ، وحسن التأنى كان أقوى تأثيرًا ، وأحسن موقعا .

وإذا اشتمل على إشارة إلى المقصود سمى **" براعة استهلال "** [1]

قال أبوهلال : " قال بعض الكتاب أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات ، فإنهن دلائل البيان ، وقالوا ينبغى للشاعر أن يحترز فى أشعاره ، ومفتتح أقواله مما يُتطير منه ، ويستجفى من الكلام كالمخاطبة بالبكاء ، ووصف إقفار الديار ، وتشتت الآلآف ونعى الشباب ، وذم الزمان لا سيما فى القصائد التى تتضمن المدائح والتهانى .

ويستعمل ذلك فى المراثى ، ووصف الخطوب الحادثة ، فإن الكلام إذا كان مؤسسا على هذا المثال تطير

---

* ـــ التأنق : الإعجاب بالشئ . ولا يكون الكلام كذلك إلا إذا كان حسنا ، وألفاظه مختارة ، ومطابقا لمقتضى الحال .

[1] - المنهاج الواضح للبلاغة : ١٣٨

منه سامعه ، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه ، دون الممدوح مثل ابتداء ذى الرمة ([1]) :

ما بال عينك منها الماء ينسكب

كأنه من كُلى مفرية سربُ ([2])

ويقال : إن ابن مقاتل الضرير أنشد " الدَّاعى العلوى " قصيدته التى أولها :

موعد أحبابك بالفرقة غد

فقال له الداعى : موعد أحبابك ، ولك المثل السوء .

وروى أن هذا الشاعر دخل على الدَّاعى أيضـًا فى يوم مهرجان ، وأنشد :

لا تقل : بُشرى ولكن بشريان

غُرة الدَّاعى ويوم المهرجان

فتطير به . وقال : أعمى يبتدئ بهذا ؛ يوم المهرجان . وقيل : بطحه وضربه خمسين عصا ، وقال : إصلاح أدبه أبلغ فى ثوابه .

وقيل : إن الدَّاعى العلوى قال ([3]) له : " إن تقل بشرى فعندى بشريان " . يعنى أن الدَّاعى أصلح للشاعر خطأه وأرشده إلى الصواب .

قال ابن حجة :

وقد نبه مشايخ البديع على يقظة الناظم فى حسن الابتداء ؛ فإنه أول شئ يقرع الأسماع ، ويتعين على ناظمه النظر فى أحوال المخاطبين والممدوحين ، وتفقد ما يكرهون سماعه

---

[1] - وهذا على سبيل التجريد . أى أن الشاعر جرد من نفسه شخصا وخاطبه ، ولكن لا يخاطب الملوك بمثل هذا الكلام ، ولذا رد عليه هشام بن عبد الملك ، بقوله : بل عنيك أنت .

[2] - الصناعتين : ٤٥١

[3] - يعنى أن الداعى أرشد ابن مقاتل إلى إصلاح الخطأ فى بيته

ويتطيرون منه ، ليجتنب ذكره ، ويختار لأوقات المدح ما يناسبها وخطاب الملوك هو العمدة فى حسن الأدب . فقد حكى أن أبا النجم الشاعر دخل على " هشام بن عبد الملك " فى مجلسه ؛ فأنشده من نظمه :

صفراءُ (1) قد كادت ولمَّا تفعل
كأنها فى الأفق عينُ الأحولِ

و "هشام بن عبد الملك" أحول ؛ فأخرجه ، وأمر بحبسه(2)

وعابوا على المتنبى مواجهة خطابه فى مطلع قصيدة له بقوله :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسْبُ المنايا أن يكنَّ أمَانيا

وذلك أنه لا يتمنى الموت إلا من يئس من الشفاء ونحوه . وهذا لا يقصده الشاعر . فالخطاب فى قوله " بك " إنما هو للتجريد ، وليس لخطاب الممدوح . ولكن الشاعر لم يوفق .

قالوا : ومن الابتداءات المختارة قول امرئ القيس :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسِقط اللّوى بين الدَخُولِ فحوملِ

ومنشأ حسنه أن الشاعر وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل بلفظ عذب لا تعقيد فيه ولا تنافر مع إشارة خفيفة بالبكاء .

وقالوا : أحسن ابتداءات الجاهلية قول النابغة :

كلينى لهمٍّ يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطئ الكواكبِ

وقال بعضهم : أحكم ابتداءاتهم قول لبيد :

---

(1) - يقصد الشمس ، فهذه صفتها قبيل الغروب ، ولم يتنبه الشاعر إلى أن الممدوح أحول العين ؛ فوقع فى الخطأ ، ولذا عوقب

(2) - خزانة الأدب : ١ / ٢١٠

ألا كل شئ ما خـــــلا الله باطل
وكل نعيم لا محالـــــة زائل

ومن الابتداءات الحسنة قول أبى أشجع السلمى :

قصرٌ عليه تحية وســـــلام
خلعت عليه جلالها الأيـــــامُ

براعة الاستهلال :

عرفت أن أحسن الابتداءات مما ناسب الحال والمقام فى عبارة عذبة وسبك جيد . وهذا يسمى براعة الاستهلال وذلك أن الابتداء إذا كان حسنا بديعا ، ومليحا رشيقا كان داعية إلى الاستماع ، لما يجئ بعده من الكلام [1]

ومن أمثلته قول أبى تمام يهنئ المعتصم بالله بفتح "عمورية":

السيف أصدق أنباءً من الكِتب
فى حدّه الحدّ بين الجدِّ واللعبِ
بيض الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ فى
متُونهن جلاء الشك والرِّيبِ

وقال أبو محمد الخازن يهنئ ابن عباد بمولود :

بُشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا
وكوكب المجد فى أفق العلا صعدا

وقال آخر يرثى بعض ملوك " بنى بويه " :

هى الدنيا تقول بملء فيها
حذار حذار من بطشى وفتكى

وأعظم الابتداءات : هو ابتداءات القرآن الكريم ثم الحديث الشريف ومن ذلك أن الله - تعالى - يقول فى مطالع بعض سور القرآن : الم ، حم ، طس ، طسم ، كهيعص ... فيقرع

---

[1] - الصناعتين : ٤٥٧ .

أسماعهم بشئ بديع ، ليس لهم بمثله عهد ؛ ليكون ذلك داعية إلى الاستماع لما بعده ، والله أعلم بكتابه .

ولهذا جعل أكثر الابتداءات بالحمد لله ، لأن النفوس تتشوف إلى الثناء على الله ؛ فهو داعية إلى الاستماع .

وقال رسول الله - ﷺ - : " كل كلام لم يبدأ فيه بالحمد لله فهو أبتر " ([1])

ثانيًا : حسن التخلص :

كان العرب يبدءون قصائدهم بذكر الديار والأطلال أو النسيب ثم ينتقل شاعرهم إلى الغرض الذى يقصده بقوله " دع ذا " ونحوه .

التخلص : هو الانتقال مما بدأ به الشاعر قصيدته بذكر الأطلال وسواها إلى الغرض من القصيدة . ويجب على الشاعر أن يتلطف فى هذا الانتقال ؛ وذلك ليكون النظم سلسا ومتلائما كى لا تكون فجوة أو طفرة فى هذا الانتقال .

فمن التخلصات المختارة قول أبى تمام :

يقولون فى قومس قومى وقد أخذت
منا السُّرى وخُطى المُهريَّة القُودِ
أمطلعَ الشمس تبغى أن تؤم بنا
فقلت : كلا ولكن مطلع الجودِ

قومس : موضع متسع بين خراسان وبلاد الجيل . المهرية : الإبل المنسوبة إلى مهرة .

وحسن التخلص يبدو فى الانتقال من مطلع الشمس إلى الممدوح بعد أن جعله الشاعر مطلع الجود . فثمة مناسبة بينهما ، فكلاهما مطلع لأمر محمود .

---

[1] - المرجع السابق : ٢٥٧

وقال أبو الطيب :

خليلىَّ مالى أرى غير شاعر
فكم منهم الدَّعوى ومنى القصائد

فلا تعجبا إن السيوف كثيرة
ولكنَّ سيف الدولة اليوم واحد

الدَّعوى : ادعاء الشعر . سيف الدولة : هو سيف الدولة الحمدانى . أشهر ملوك الدولة الحمدانية فىالعصر العباسى الثانى ؛ وهو الممدوح .

فالشاعر انفرد بالشعر والممدوح انفرد بأنه سيف الدولة .

ومن الأمثلة ما جاء فى المثل السائر ([1]) :

زعمت هواك عفا الغداة كما عفت
منها طلولُ باللِّوى ورسوم

لا والذى هو عالم أن النوى صبِرُ
وأن أبا الحسين كريمُ

ما زلتُ عن سنن الوداد ولا غدت
نفسى على إلف سواك تحُوم

فهذا خروج من غزل إلى مديح أغزل منه .

قال ابن الأثير ([2]) :

وقال أبو العلا محمد بن غانم المعروف بالغانمى : إن كتاب الله خال من التخلص .

وهذا القول فاسد ، لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام إلى آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذى خرج منه ، والكلام الذى خرج إليه .

وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة كالخروج من الوعظ والتذكير والإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهى ووعد

---

[1] - جـ٣ ص ١٢٣

[2] - المرجع السابق : ١٢٨

ووعيد ، ومن محكم إلى متشابه ، ومن صفة لنبى مرسل وملك منزل إلى ذم شيطان مَريد ، وجبار عنيد بلطائف ، ومعان أخذ بعضها برقاب بعض . ثم قال : " وفى القرآن مواضع كثيرة من التخلصات كالذى ورد فى سورة الأعراف فإنه ذكر فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية من آدم إلى نوح - عليهما السلام - وكذلك إلى قصة موسى - عليه السلام - حتى انتهى إلى آخرها الذى هو([1]) :

" واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنّـا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآيتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون "

هذا النص من التخلصات الحسان ، فإن الله - تعالى - ذكر الأنبياء والقرون الماضية إلى عهد موسى - عليه السلام - فلما أراد ذكر نبينا - صلوات الله عليه وسلامه - ذكره بتخلص نظم به بعض الكلام ببعض .

ألا ترى أنه قال : قال موسى - عليه السلام - : " واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة " فأجيب بقولـه تعالى :

---

[1] - سورة الأعراف : ١٥٥ ـــ ١٥٧

" قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين ... " مَنْ حالهم كذا وكذا ، ومَنْ صفتهم كيت وكيت ، وهم " الذين يتبعون الرسول النبى الأمى " ثم وصفه ـ صلوات الله عليه ـ بصفاته إلى آخر الكلام .

ويا لله العجب ([1]) كيف يزعم الغانمى أن القرآن خال من التخلص ؟! ألم يكفه سورة يوسف ـ عليه السلام ـ فإنها قصة برأسها ، وهى مضمنة شرح حاله مع إخوته من أول أمره إلى آخره ، وفيها عدة تخلصات فى الخروج من معنى إلى معنى ، وكذلك إلى آخرها .

ولو أخذتُ فى ذكر ما فى القرآن الكريم من هذا النوع لأطلت ، ومن أنعم نظره فيه وجد من ذلك أشياء كثيرة "([2])

وأقول : الحق مع ابن الأثير فى إبطال رأى الغانمى ، والتعجب منه ، فالقرآن حافلٌ بالتخلص من موضوع إلى موضوع ، ومن قصة إلى أخرى ، وغير ذلك كثير .

وقد ينتقل من الفن الذى ابتدئ به إلى ما لا يلائمه ، ويسمى هذا :

الاقتضاب : وهو مذهب العرب الأولى ومن يليهم من المخضرمين ومثاله قول الشاعر :

فدَع ذا وسلّ الهمَّ عنها بجسرة
ذمول إذا صام النهارُ وهجَّرا

" ومن الاقتضاب ما يقرب من التخلص كقول القائل بعد حمد الله : " أما بعد " . قيل : وهو " فصل الخطاب " ([1])

[1] ـ بعد أن ذكر ابن الأثير الأمثلة من القرآن الكريم على التخلص تعجب من إنكار الغانمى له .
[2] ـ المثل السائر : ٣ / ١٣١ ، ١٣٢

وكقولـه تعالى : " هذا وإن للطاغين لشر مآب . جهنّم يصلونها
فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغسّـاق . وآخر من شكله أزواج " ([2]) فالتخلص بكلمة: " هذا " أى : الأمر هذا ، أو : هذا كما ذكر . ثم الانتقال إلى معنى أو معان آخر. ونحوه قول الكاتب : " هذا باب " و " هذا فصل " .
وقال ابن الأثير :
" فمن ذلك ما يقرب من التخلص ، وهو فصل الخطاب ، والذى أجمع عليه المحققون من علماء البيان "أما بعد " لأن المتكلم يفتتح كلامه فى كل أمر ذى شأن بذكر الله وتحميده ؛ فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين ذكر الله ـ تعالى ـ بقوله " أما بعد ".
وقال ابن الأثير :
ومن الفصل الذى هو أحسن من الوصل لفظة " هذا " وهى علاقة وكيدة بين الخروج من الكلام إلى كلام آخر غيره ، كقولـه تعالى : " واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار . هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب . جنات عدن مفتحة لهم الأبواب " ([3])
ألا ترى إلى ما ذكر قبل (هذا ذكر) من ذكر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر غيره ، وهو ذكر الجنة وأهلها ؛ فقال : " هذا ذكر " ثم قال : " وإن للمتقين

---

[1] - من الآية ٢٠ سورة ص . وهى : " وشددنا ملكـه وآتينـاه الحكمـة وفصل الخطاب " .
[2] - سورة ص : ٥٥ ـ ٥٨
[3] - سورة ص : الآيا ـ ٥٠

لحسن مآب " ثم لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال : ". هذا وإن للطاغين لشر مآب"وذلك من "فصل الخطاب" الذى هو ألطف موقعا من التخلص ([1])

ثالثـًا : حسن الانتهاء :

وهو آخر ما يختم به الكلام ، وآخر ما يبقى فى السمع منه ، لذا ينبغى أن يكون له تأثيره ؛ ليتمكن فى النفس ، ويؤدى دوره فى المراد من الكلام .

فمن الانتهاءات المرضية قول أبى نواس يمدح المأمون :

فبقيتَ للعلم الذى تهدى له
وتقاعست عن يومك الأيامُ

فقد دعا للمأمون بأن يبقى للعلم راعيا ، كما دعا له بطول العمر .

وقال أبو العلاء :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله
وهذا دعاء للبرية شاملُ

وختم أبو تمام قصيدته الرائعة فى فتح " عمورية " بقوله :

وإنى جدير إذ بلغتك بالمنى
وأنت بما أملت منك جدير

فإن تولنِى منك الجميلَ فأهله
وإلا فإنى عاذر وشكور

وحسن الختام موضعه الشطر الأخير .

والمراد : فإنى قابل للعذر وشكور لعطاياك الماضية ، أو لإصغائك إلى مديحى .

---

[1] - المثل السائر : ٣/ ١٣٩ ، ١٤٠

فهذه الأشياء الثلاثة وهى : حسن الابتداء ، وحسن التخلص ، وحسن الانتهاء ، كان الأولى بها أن تدرس عند تعريف المتأخرين لعلم المعانى فهو " علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال ".

فأمر هذه الثلاثة لا يخرج عن ذلك ، ولذا تبدو صلتها وثيقة بهذا العلم وإن عُدَّت عند الخطيب ومدرسته من ملحقات " علم البديع " واستمر الحال على هذا فى دراسة البلاغة العربية .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٦٢٧٦ / ٢٠٠٣
بتاريخ : ١٦ /٩ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى
977 - 298 - 290 - 0